المكان في شعر عماد الدين الاصبهاني (ت٥٩٧هـ) ((دراسة تحليلية))

م . د كمال عبد ناصر
جامعة الانبار/ كلية الآداب/ قسم اللغة العربية

ملخص

يتحدث بحثنا عن المكان في شعر ((عماد الدين الاصبهاني)) ، والذي يعد احد شعراء القرن السادس الهجري ، اذ كان أبرز الشعراء في عصره ؛ وله مكانه خاصة عند الأمراء والقادة آنذاك ، فتناول المكان في شعره ، وما له الدور المهم لدى الشاعر ، في تجسيد الصورة الشعرية ، فاخذ المكان الأليف حيزاً جميلاً لارتباطه في معالم الطبيعة ، ثم المكان الموضوعي ودلالة البلدان والمدن التي عاش فيها وتنقل فيما بيناها ، وكذلك اطرّق إلى المكان الحربي ؛ الذي يصور القتال لأجل تحرير الأماكن المغتصبة ؛ فكان صوته العالي المدافع عنها ، فالشاعر صدح كثيراً في الدافع عنها وتحريرها ولا سيما الأماكن المقدسة .

الكلمات المفتاحية : المكان ، في شعر عماد الدين الاصبهاني

The Place in the Poetry of Imad Al-Din Al-Asbahani (d. 597 AH) ((An Analytical Study))

NS . Dr. Kamal Abdel Nasser
University of Anbar/College of Arts/Department of Arabic Language

Abstract

Our research talks about the place in the poetry of ((Imad Al-Din Al-Asbahani)), which is one of the poets of the sixth century AH. The embodiment of his poetic images, so the familiar place took a beautiful space because of its connection with the features of nature, then the objective place and the significance of the countries and cities in which he lived and moved between them, as well as he touched on the war place that depicts the fighting for the liberation of the usurped places, so his loud voice defended him, the poet was very vocal in the motive and their liberation, especially the holy places

Keywords: The place, in the poetry of Imad Al-Din Al-Asbahani

التمهيد :

أولاً : تعريف المكان :

أ- لغة :

ذهب صاحب اللسان إلى ان ((المكان واحد .... مكان في أصل تقدير الفعل مفعل ، لأنه موضع لكينونة الشيء فيه ، غير انه لما كثر ، أجروه في التصريف مجرى فعال فقالوا : مكنا له ، وقد تمكن ... والدليل على ان المكان مفعل ، ان العرب لا تقول في معنى هو في مكان كذا وكذا ، إلا مفعل كذا وكذا بالنصب ، والمكان الموضع والجمع أمكنة ، كقذال واقذله ، وأماكن جمع الجمع)) [١] .

وهذا يؤكد دور وأهمية المكان في لغة العرب بوساطة هذه المرادفات اللغوية التي تظهر اتساع المفهوم اللغوي لهذا المصطلح عند العرب .

ب . اصطلاحاً :

وقد اتخذ المفهوم الاصطلاحي للمكان بعداً فلسفياً مع الفلسفة اليونانية ، ويعد أفلاطون أول من صرّح به استعمالا اصطلاحياً ؛ إذ عدّه حاوياً وقابلاً للشيء [٢] .

أما الفلاسفة العرب أيضا ، وقد جمع حسن مجيد الربيعي آراءهم فيه – قبل ابن سينا – إلى اتجاهات ثلاثة ؛ هي : **الأول** : يذهب إلى أن المكان (سطح الجسم الحاوي) ، وبه قال الكندي والفارابي وأخوان الصفا وفلاسفة بغداد [٣] ، والثاني : وهو معارض للأول ، وهو ما صرّح به أبو بكر الرازي ، إذ يرى أن المكان بعدٌ لا متناهٍ ، وقد ميز نوعين من الأماكن ؛ أحداهما : الكلي أو المطلق ، وهذا يساوي الخلاء ، ولا يوجد فيه متمكّن . والآخر : المكان الجزئي ؛ وهذا ما لا يمكن تصوره من دون متمكن لكنه لا ينتهي بنهاية الجسم ، بل هو موسّع في الجهات[٤] ، أما الاتجاه الثالث : فهو اتجاه ابن الهيثم والفيلسوف ابن رشد ؛ إذ برهنا على ما مفاده أن المكان ((هو النهايات المحيطة بالجسم الطبيعي)) [٥] .

أما المكان عند ابن سينا فيعني ((السطح الباطن من الجرم الحاوي المماس للسطح الظاهر للجسم المحوي))[٦] .

---

[١] – لسان العرب مادة (مكن) : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار النشر: دار صادر ، ط١ ، بيروت ، ١٣ / ٤١٤ .

[٢] – نظرية المكان في فلسفة ابن سينا : حسن مجيد الربيعي ، مراجعة وتقديم : د. عبد الأمير الاعسم ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، ط ١ ، ١٩٨٧م : ص١٩ .

[٣] – المصدر نفسه : ص١٧٩ .

[٤] – المصدر نفسه : ص١٧٩ .

[٥] – (مشكلة المكان في فلسفة ابن رشد) : عبد العزيز لعمول ، مجلة فكر ونقد ، ع١٣ ، عن الانترنيت ، موقع : فكر ونقد الجابري : fikrwanakd-aljabriabed.net .

[٦] – وينظر : نظرية المكان في فلسفة ابن سينا : ٥٩-١٧٩ .

ثانياً : التعريف بالشاعر :

((أبو عبد الله محمد بن صفي الدين ابي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجاء حامد المشهور بالعماد الاصبهاني)) [١] ، ولد العماد في اصبهان سنة ٥١٩ هـ ونسب إليها [٢] ، وكانت اسر العماد من الأسر العريقة لها شان في الفضل والوجاهة والإخلاص من بين الأسر التي عاشت في القرنين الخامس والسادس الهجري وكان العماد – رحمه الله – يسال والده عن الشعراء [٣] ، نشأ في شبابه مع والديه في اصبهان منذ ولادته حتى سنة (٥٣٢ هـ) ثم رحل منها إلى (قاشان) * بصحبة أبيه وأخيه الصغير ، حيث تردد العماد إلى مدرستها ، فتعلم فيها القران الكريم وشيئاً من الأدب ، ثم رجع بعد سنة (٥٣٤ هـ) ، ثم خرجا إلى بغداد لظروف صعبة ، والتحق هناك بالمدرسة النظامية ببغداد حيث تفقه على يد كبار علمائها في تلك المدّة ، فاخذ علوم النحو واللغة والأدب وسمع الحديث [٤] ، رحل من بغداد إلى بلاد الشام ، ووصل العماد دمشق في شعبان سنة ٥٦٢ هـ ، وسلطان الشام يومئذ الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين الزنكي ، فانزله قاضيه كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري بالمدرسة ((النورية)) التي سميت فيما بعد المدرسة ((العمادية)) نسبه اليه ، ونال إكرام نور الدين ، وعين في دولته منشئاً إلى جانب التدريس بالمدرسة التي نزل فيها ، ثم أصبح مشرفاً على ديوان الإنشاء مضافاً إلى كتابة الإنشاء [٥] .

بعد أن توفي السلطان نور الدين سنة ٥٦٩ هـ ، وسيطر السلطان صلاح الدين على مقاليد الحكم التقى بالسلطان في مدينة حمص ، فمدحه بقصيدة طويلة ، وأصبح في الدولة الأيوبية مسؤولاً عن ديوان الاستيفاء ، يقول ابن خلكان : ((لم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته ، إلى أن توفي

---

[١] – الكامل في التاريخ ، عز الدين بن الأثير ، مط دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ م : ١٢ / ١٧١ ؛ وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، تحقيق احسان عباس ، مط دار دار صادر ، بيروت ، ١٩٧١ م : ص٨ / ١٤٧ .

[٢] – تلخيص مجمع الآداب ، ابن القوطي : تحقيق د. مصطفى جواد ، مط الهاشمية ، دمشق : ص٢ / ٨٤٥ .

[٣] – خريدة القصر ، قسم العجم ، عماد الدين الاصبهاني ، تحقيق محمد بهجت الأثري ، و د. جميل سعيد ، مط المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٥ م : ص ١ / ١٨١ .

* قاشان : بالشين المعجمة وأخره نون قرب اصبهان تذكر مع قم ، أهلها كلهم شيعة أمامية بينها وبين قم اثنا عشر فرسخا وبينها وبين اصبهان ثلاث مراحل (معجم البلدان : ياقوت أبو عبد الله بن عبد الله الحموي ، دار النشر: دار الفكر – بيروت : ص٤ / ٢٩٦) .

[٤] – الطبقات الكبرى ، سابن السبكي ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود الطناجي ، مط عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٨ م : ص ٤٢/٢ .

[٥] – ينظر ديوان العماد الاصبهاني ، أبو عبد الله محمد بن صفي الدين المشهور بالعماد الاصبهاني (ت ٥٩٧ هـ) ، جمعه وحققه وقدم له د . ناظم رشيد ، الموصل ، ١٩٨٣ م : ص٦ .

السلطان صلاح الدين (رحمه الله) فاختلفت أحواله ، وتعطلت أوصاله ، ولم يجد في وجهه باباً مفتوحاً ، فلازم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف)) [١] ، توفى بدمشق سنة (٥٩٧ هـ) .

ثالثاً : أهمية المكان :

إنّ أهمية المكان تكمن في المقولة ؛ التي تذهب بالقول إلى إنّ أفعال الخلق تقع في زمان ومكان [٢] ، إن فكرة وجود الكائن الحي في مكان ما فكرة قديمة تؤيدها الآيات القرآنية الكريمة ، التي تواترت على وجود الإنسان في مكان معين يعد أساس حياته ودوامها واستقرارها [٣] ، فالمكان يمثل الحيز الأكبر في حياة الإنسان ، ففيه العيش ويحتمي فيه ، واليه يعود بعد الموت ، فنحن لا يمكن أن نتصور وجودنا بلا مكان ، بل وحتى إن هذا الكون الفسيح بنفسه ، الكبير بحجمه لا بد له من مكان يحتويه [٤] ، والشاعر واحد من الخلق الذي يعيش في مكان ، يؤثر هذا المكان في أدق تفاصيل حياة الشاعر ، واهم تشعباتها فلا جرم أن نجد انعكاسات كثيرة ودلالات مختلفة لهذا التأثر والتأثير بين الإنسان الشاعر ومكانه [٥] .

فالمكان يعدّ ذا قدسية لدى الشاعر؛ فهو امتداد حياته وجذوره الأصيلة ؛ التي تربى فيه ونشأ على مقوماته بخيرها وشرها وشاهدت عينه من أول وهلة ما حوله وما يحيط به ، فطبع في ذاكرته وعاش في مخيلته ، فكان الحنين والشوق إليه في حله وترحاله ، فالشاعر لا ينسلخ عن مكانه ووطنه الذي تربى وعاش فيه ، فالمكان ركن ضروري في أي عمل أدبي ((وان العمل الأدبي حين يفقد المكانية فهو بفقد خصوصيته وبالتالي أصالته)) [٦] ، فكيف لا يكون للمكان الأهمية وهو ((الوعاء الذي يردد قيمته كلما كان متداخلا بالعمل النفسي)) [٧] .

١- إرشاد الأريب لمعرفة الأديب : ياقوت الحموي ، القاهرة ، ١٩٣٦ م : ص٧/ ٨٥ .

٢ - ينظر الأزمنة والأمكنة : أبو علي احمد بن محمد بن الحسين المرزوقي (ت ٤٢١) حيدر أباد الدكن ، ١٣٣٦ هـ : ص ١ / ١٣٩ .

٣ - ينظر : الزمان والمكان في قصة العهد القديم ، احمد عبد اللطيف حماد ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، ١-٣ ، ١٩٨٥م : ص٦٥ .

٤ - ينظر : الزمان والمكان في شعر العصر العباسي الأول (١٣٢ هـ . ٢٣٢ هـ) ، غني صكبان سلمان ، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م : ص٥٦ .

٥ - المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي ((٤٨٤ هـ - ٨٩٧ هـ)) ، تاليف الدكتور : محمد عويد محمد ساير الطربولي ، الناشر مكتبة الثقافة الدينية ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م : ص١٠

٦- جماليات المكان : جاستون باشلار ، ترجمة غالب هلسا ، بغداد ، ١٩٨٠ م : ص١٦

٧- الرواية والمكان : ياسين النصير ، منشورات وزارة الثقافة والأعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ م : ص٢٧

المبحث الأول : المكان الأليف :

المكان الأليف من الأماكن المحببة إلى النفس ويعرف بأنه ((المكان الذي نحب ، والأثير المكان الذي نحب ، والأثير الذي يعيش في داخل النفس ، ويحفز فينا مشاعر الألفة والحماية)) [١] .

المكان الطبيعي : إن الشعر ((هو ابن الطبيعة ، منها نشأ وفي أحضانها ترعرع وبمثلها بلغ الكمال)) [٢] ، فعناصر الطبيعة متمثلة بالسماء والأرض ، وما فيهن من جمال يأخذ بالألباب ، ومن الأماكن الطبيعية الواردة في شعر الاصبهاني ما يأتي .

١- السماء : لقد تأمل الشعراء السماء محاولين إدراك جمالها مستمدين من خصائصها مادة في نظمهم فاستمدوا من معنى السماء المشتقه من لفظة (سمو) أصل يدل على العلو يقال سموت إذا علوت [٣] ، فكان معنى السماء واضحاً عن العماد دلالة على هذا المعنى في السمو والارتفاع ، يقول [٤] :

أَرضيتَ تحتَ الأَرضِ يا مَنْ لم يزلْ فوقَ السّماءِ عَليّةً درجاتُهُ

نلحظ في رثائه للقائد صلاح الدين ، كيف احتضان الأرض له مكان ابدي ، وفي عنان السماء ذكره وسموه وارتفاعه ودرجاته ؛ لأنَّ ما قام به صلاح الدين الايوبي لم يقم به من تحرير بيت المقدس ، فكانت مزاوجة رائعة في هذا البيت بين المكانين البعيدين بالمسافة .

ويجمع الشاعر العماد بين مكانين قريبين من بعض السماء والنجوم ، فالنجوم من عناصر السماء ، في معرض وصف فتوحات نور الدين زنكي ، فيتحسس الأشياء بروح من البطولة والانفعال فيقول[٥] :

غَطّى العجاجُ بهِ نجومَ سمائهِ لتنوبَ عنها أَنجُمُ الخُرْصانِ

اتخذ الشاعر من مكان الطبيعة الفلكية لوحة للشجاعة والبطولة ، فكرر لفظة النجم بالجمع ((نجوم ، وأنجم)) كما صور عجاج المعركة يطاول عنان السماء ، للدلالة على إن المعركة حامية الوطيس وانّ القوة كبيرة بين الجيشين لكن بسالة الجيش المسلم ، كانت له كلمة الفصل في هذا الصراع فجعله من عناصر المكان ؛ دلالة لهذا النصر .

---

[١] – البناء الفني في الرواية العربية في العراق ، شجاع مسلم العاني ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٧ : ص٣١٩ .

[٢] – شعر الطبيعة في الأدب العربي : د. سيد نوفل ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٥ م : ص٢٥٨ – ٢٥٩ .

[٣]– ينظر معجم مقاييس اللغة مادة (سمو) : تأليف: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، ط٢، بيروت – لبنان ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م: ص٣/ ٩٨

[٤] – ديوانه : ص٩١ .

[٥] – المصدر نفسه : ص ٤١٢ .

٢- **الشمس** : تَعّدُ الشمس من عناصر السماء ومكانها المتنقل فيها ، فالشاعر تطرق لذكرها في مدح الخليفة المقتفي حين يقول[١] :

فالشّمسُ ما بينَ العجاجِ كأَنّها بدرٌ تطلّع جُنح ليلٍ لائلِ

شبه الخليفة بالشمس ، والبدر ، وأسبغ عليه المعاني الرائعة في الوصف ، ليجعل من الخليفة الحاكم العادل المنصف لرعيته كاشف عنهم الهموم ، والناس تنعم معه بالأمن والأمان ، وتجلت أنواره فغطّت أنحاء المعمورة ، فهذه الصورة الشعرية نقلها في مديح السلطان صلاح الدين أيضاً ، فيقول [٢] :

شمسُ الضحى في الحسنِ لم تُضاهها بدرُ الدجى في التِم لم يوازِها

فقد جعل للشمس دلالة مكانية وزمانية في مدحه القائد صلاح الدين ، ووصفه بشمس الضحى والمعلوم أنّ وقت الضحى تتجلى فيه الشمس بكامل أضاتها على الأرض ؛ ليعطي معنى أنّ انتصارات صلاح الدين ، تتجلى فوق الأرض ، ثم يعود لينقل صورة جميلة في التشبيه ، بوصفه بدر الدجى يشع نوره في كل مكان ، كأنه بدراً اكتمل لينير الظلام .

٣- **القمر** : جعل الشاعر لمكان القمر تشبيهاً رائعاً في مدح السلطان صلاح الدين ، توظيفاً يليق بمقامه ، حين يقول [٣] :

غدا عاذلي عاذراً مذْ رأَى عذاركَ كالقمرِ الأَكلفِ

٤- **الأرض** : الأرض إحدى العناصر الكونية المعروفة ؛ لقربها من الإنسان وأهميتها في حياته من شتى النواحي لم يكن من السهل إدراكها وحصرها ضمن نطاق فكرة واحدة [٤] ، وقد قال الاصبهاني حين توجه من القاهرة إلى الإسكندرية مع السلطان صلاح الدين يقول[٥] :

نزلنا بأرض المُنيتين ومُنيتي لقاؤكم الشافي ووصلكم المجدي

يذكر الشاعر الأرض وكيف نزولهم فيها واستقراره بها ، فالمكان المتمثل بالأرض زاده تشرفاً حين حطت عليه أقدام السلطان صلاح الدين ، فكان دخوله لهذا المكان كالطبيب الشافي له ، ووصل الحبيب لحبيبته ، فناغم الشاعر بين المكان والإنسان في صورة أليفه مؤنسة تجمع بينهم .

---

[١] - ديوانه : ص٣٤٨ .

[٢] - المصدر نفسه : ص ٢٢٥ .

[٣] - المصدر نفسه : ص٣٠٣ .

[٤]- ينظر ما قبل الفلسفة، الإنسان في مغاراته الفكرية الأولى : هنري فرانكفورت "وآخرين". ترجمة : جبرا إبراهيم جبرا. مراجعة : محمود الأمين، دار مكتبة الحياة ، ط١،، بغداد، ١٩٦٠ م : ص ١٧١ .

[٥] - ديوانه : ص١٢٩ .

في موطن أخر يجمع أيضاً بين مكانين الأرض ، والجبال في موضع واحد فيقول[١] :

بسطوة بأسهم في كلِّ أَرضٍ جبالُ الشِّركِ عادتْ كالعهونِ

غدا الفضلاءُ منهم في مكانٍ مـــن الإكرام محروسٍ مكينِ

إنَّ أماكن الطبيعة الجامدة (الصامتة) التي تتضمن وصف الجبال والكثبان والوديان والأنهار والبحار والصحراء ، تعطي خيالاً خصباً لدى الشاعر [٢] ، فنجده يستوحي من المكان الطبيعي الجامد لوحات فنية ذات خيال واسع في رسم جمالية وصفية في التعبير هما يلوح في خاطره ونقله إلى متلقيه بكافة أغراضه الشعرية ، مستغلاً جواهر المكان في تبيان ذلك .

٥- الجبال : وهي من العناصر المكانية التي يتألف منها الكون الأرضي ، والجبال كانت وما زالت منبعاً للشعراء ، يستقون منها معاني الرسوخ والعلو والثبات والشدة والصلابة وغالبا ما تكون هذه المعاني طرفا تشبيهياً لا غنى عنه خاصة في فن المديح [٣] ، وفي مدحه لصلاح الدين حين فتح القدس يقول[٤] :

تَزُولُ الجبالُ الراسباتُ وثابتٌ رسيسُ غَرامٍ في فؤادي لكُمْ أَرْسَى

كان الشعراء ((يتحدثون عن الجبال أثناء حديثهم عن قطع المفاوز وقدرتهم على اختراقها وعبورها بناقة تقرب البعيد ، وتصل ما تباعد من الجبال)) [٥] ، فسار العماد على هذا النهج في نظمه فكان للجبل ومكانه المقام العالي لما له أهمية في إضفاء ، وإصباغ معاني القوة والصمود والثبات في شعره ، حيث يقول[٦] :

جَبَلٌ تضعضعَ مِنْ تَضَعْضُعِ ركنهِ أَركانـــا وتهـــدُّنا هداتُـهُ

مـــا كنتُ أَعلم أَن طـوداً شامخاً يهوي ولا تهوي بنا مهواتُهُ

---

[١] – ديوانه : ص٤٢٨ .

[٢] – ينظر : الطبيعتان الحية والصامتة في الشهر الجاهلي : د. بهيج مجيد القنطار ، منشورات دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م : ص ٤٧ .

[٣] – المكان عند شعراء بني أيوب ((دراسة فنية)) : نضال عبد الجبار حسوني ، رسالة ماجستير ، كلية التربية للبنات – جامعة بغداد ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م : ص ٢٦ .

[٤] – ديوانه : ص٢٣٠

[٥] – الطبيعة في الشعر الجاهلي : د. نوري القيسي ، مكتبة النهضة العربية ، ط٢ ، ١٩٨٤ م : ص٢٣

[٦] – ديوانه : ص٨٨ .

حزن الشاعر كثيراً على وفاة القائد صلاح الدين ، ورثاه بقصيدة يبكي عليه بأسى وحرقه كبيرة ، فوصف بالجبل كيف يتضعضع ويهوى ، ثم يعود ويشبهه بالطود الشامخ ليكرر عليه معاني الجبل ، والشاعر مستغرب ومتفاجئ من هول الموقف ، كيف لهذا القائد العظيم تأخذه يد المنية ، فالمعلوم إن الجبل لا يهتز ولا يزول ، فأعطى معاني القوة له والصمود على الرغم من وفاته ، فمكان (الجبل) فقد قيل فيه انه ((استطاع أن يحقق خلوده حين أفلت من أسار طوابعه العامة المألوفة إلى طوابع جديدة خلقتها فلسفة الشاعر التي أنطقت هذا الجبل بالحكمة والمعرفة المشربة بالحزن الدفين)) [١] ، إنَّ الوقوف على مواطن الإبداع الأدبي ؛ إنَّما تكون من أصعب الحالات ؛ التي يمرُّ بها المبدع ، فلحظة الإبداع قاسية في إشغال الفكر ، وشده ليخرج النص نابعاً من صميم تجربة الذات التي ترى في الأشخاص وفي الأحداث وفي الطبيعة ما يعبر عن تجربتها وينقلها إلى الآخرين ، وكان الجبل من تلك المظاهر التي نقلها الشاعر بوساطة تجربته مع الآخرين [٢] .

٦- **الصحراء** : وتمثل أوسع المعالم الأرضية التي شاهدها الإنسان ، فأينما التفت كانت الصحراء على مرأى البصر ((ولا شك في أنَّ الشعر العربي قد نشأ في الصحراء ، واستوعب أوصافها ، حيث أنَّ الشاعر الجاهلي لم يدع فيها شيئا دون أنْ يصفه ويصوره)) [٣] ، يقول : متشوقا إلى مكانه دمشق [٤] :

ولما قصدْنا من دمشقَ غباغباً وبتنا من الشوقِ الممض على الجمرِ

نـزلنا بصحراءِ الفَقيعِ وغُودِرَتْ فــواقعُ مـــن فيضِ المدامعِ في الغُدرِ

٧- **المياه** : الماء من نعم الله الكبرى ((ولعل الماء أهم رموز الحياة وضوحاً في ذهن الإنسان منذ أقدم العصور ، فهو مادة الحياة التي خلق منها كل شيء)) [٥] ، وعلى هذا الأساس صار الشعراء ((يرونه في أبهى الأشياء وأكثرها حركة فأكثروا من استعماله في أشعارهم ، ووجدوا أوجه شبه كثيرة بين الماء وبين مفردات حياتهم)) [٦] ، ويردد الشاعر لفظ الماء بقوله [٧] :

يَمْتاحُ من قلبِ القلوبِ دماءَها بالسُّمرِ مَتْحَ الماءِ بالأشطانِ

---

[١] – المكان والرؤية الإبداعية : د. نادية غازي جبر ، مجلة أفاق عربية ، عدد آذار – نيسان ، ١٩٩٨ م : ص٨٠ .

[٢] – المكان في الشعر الأندلسي : ص ٣٥ .

[٣] – الطبيعة في الشعر الأموي : عبد الأمير كاظم عيسى ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – بغداد ، ١٩٨٣ م : ص ٣٨ .

[٤] – ديوانه : ص٢٠٤ .

[٥] – الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام : عبد الإله الصائغ ، بغداد ، ١٩٨٦ م : ص١٤٦ .

[٦] – المصدر نفسه : ص١٤٨ .

[٧] – ديوانه : ص٤١٢ .

ومن دلالات وعناصر المياه يردد ألفاظ تتعلق به ، فيذكر لفظ ومكان البحر في رثائه للقائد صلاح الدين ، فوظف الأماكن الطبيعية الأليفة المأنوسة في التعبير عن الحزن العميق في البكاء والنحيب ، فرسم صوره جميلة بين الحزن والألفة حيث يقول[١] :

ما كنتُ أَعلمُ أَنَّ بحراً طامياً فينا يُطَمُّ وتنتهي زخراتُهُ
بحرٌ خلا من وارديهِ ولم تزلْ محفوفةً بوفودهِ حافاتُهُ

وكان لنهر النيل حضور في شعره ذكره بأنه جار للبحر قريب منه فربط العلاقة المكانية بينهم أزلية لا تنتهي ، لنجد دلالات المكان عن الشاعر مرتبطة فيما بينهما ارتباطاً وثيقاً ، ومنها قوله [٢] :

كانتْ ولايةُ مصر قبلَ عزَّتِها بكشفِ دولتها لحماً على وضمِ
فالنيلُ ملتطمٌ جارٍ على خَجَلٍ جــاراً لبــحرِ نـوالٍ منكَ مُلتطمِ

ومنها أيضا ذكر نهر الفرات في قوله [٣] :

فاعبُر إلى القومِ الفراتَ ليشربوا الـ ـموتَ الأُجاجَ فقد طَما طَفّاحُهُ
نَجُّوا البلادَ مـــن البـــلاءِ بعدلكم فالظلمُ بادٍ فـي الجميعِ صُراحُهُ

يعود سبب هذه النظرة الحزينة لنهر الفرات من المناظر التي شاهدوها في الحرب وهم يقاتلون في الثغور الشامية ، وأشلاء القتلى منتشرة في الفرات وعلى ضفافه ، فتطهير البلاد تكن على هذه الأرض الزكية وهلاك وموت المغتصب من الواجبات ، فالأماكن تستغيث من شرورهم وبلائهم وظلمهم .
يذكر نهر بردى بدمشق أيضا يتشوق اليه يقول [٤] :

ومن بردى بَرْدُ قلبي المَشُوق فها أَنا من حَرهِ مُستَجيرُ

إنَّ الاهتمام بمصادر الحياة في المكان الأليف مثل السماء ، والنجوم ، والشمس، والقمر ، والأرض والجبال ، والصحراء ، والماء ، والبحر ، والنهر، جاء مناقضاً للمكان المعادي الذي كان التركيز فيه على مصادر الموت والرعب ، وان اتخاذ "النهر((عنصراً أو رمزاً قاطباً لعناصر مكانية أخرى تنطوي على الحياة الأليفة، كان نتيجة لدوره في إنماء المكان وازدهاره ، وان عودته للجريان (صافياً) يعني جرياناً للحياة في المكان لان "عناصر الطبيعة تسهم في تحديد خصوصية المكان، وان ذهابها يعني

---

[١] – ديوانه : ص٨٨ .
[٢] – المصدر نفسه: ص٣٨٢ .
[٣] – المصدر نفسه : ص١١١ – ١١٢ .
[٤] – المصدر نفسه : ص١٨٥ .

بالتالي فقدان المكان لهويته، حتى لو بقي الإنسان ملتصقاً به)) [١] ، وهكذا ترد عناصر الطبيعة لتوضح للمكان هويته، وتمنحه تميزه عن المكان المعادي الذي يفتقر إليها [٢] .

المبحث الثاني : المكان الموضوعي .

وهو المكان الذي له وجود على ارض الواقع فهو ((يبني تكويناته من واقع الحياة الاجتماعية)) [٣] ، يحمل في جوفه كل معاني الحياة ؛ إن عملية البحث في المكان هي محاولة لتعرف أبعاده الفنية والفكرية ومعرفة هذه الأبعاد تستلزم ، البحث في أنواعه وابرز أنواع المكان في شعر العماد ، المكان الموضوعي الذي ((يبني تكويناته من الحياة الاجتماعية ، وتستطيع أن تؤشر عليه بما يماثله اجتماعيا وواقعيا)) [٤] ، وفي ضوء هذا التعريف تكون الأماكن التي تمثل الواقع في شعره أماكن موضوعية . والمكان الموضوعي في شعره لا يتقيد بحدوده ، وسنجد ذلك واضحاً في شعره . فمن أهم الأماكن الموضوعي .

المكان الإنساني : وهو موطن السكن الحقيقي للإنسان ، والمكان الإنساني ((هو الكيان الاجتماعي الذي يحتوي خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه ، لذا فشانه شان أي نتاج اجتماعي أخر يحمل جزءا من أخلاقياته وأفكار ووعي ساكنيه)) [٥] ، إن اقتران المكان بوجود الإنسان يضفي عليه جمالية من نوع خاص تكون مفهومة على مستوى الفرد أكثر مما تكون ملموسة على مستوى الجماعات، وليس للمكان أهمية على لائحة الجمال إن خلا من وجود الإنسان أو فعله [٦] ، فالمكان الإنساني هو حياة الشاعر وذكرياته وسيرته لان المكان الموضوعي الإنساني يعتمد على الأماكن التي عاش وترعرع فيها ، وأماكن انتقل إليها تركت لديه الأثر البالغ في حله وترحاله .

---

[١] – دلالة المكان في "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف : محمد شوابكة، مجلة اليرموك، مج/٩، عدد ٢، سنة ١٩٩١ : ص٣٢ .

[٢] – المكان في شعر الحرب ، محمد صادق جمعة إبراهيم ، رسالة ماجستير ، كلية التربية . جامعة الموصل ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م : ص١١١ .

[٣] – الرواية والمكان : ص ٢٧

[٤] – المصدر نفسه : ص ٢٧

[٥] – المصدر نفسه : ص ١٦

٦ – المكان في شعر الحرب : ص ١٠١ .

١- **البلدان :**

من أهم الأماكن التي عاش فيها الشاعر هي (اصبهان ، بغداد ، واسط ، القاهرة) وهذه الأماكن الأكثر شيوعاً لدى العماد ، فاصبهان هي المولد والمنشأ وتعلم فيها اللغة العربية ، ثم بغداد تلقى العلوم فيها ، ثم بعدها إلى الشام وقد أشار في شعره ليها يقول [١] :

يوماً بجيٍّ* ويوماً في دمشق وبال فسطاط يوماً ويوماً بالعراقينِ

كأنَّ جسمي وقلبي الصبّ مـا خلقا إلاّ ليقتسما بالشَّــوقِ والبينِ

فالشاعر من أصبهان نزح إلى العراق في أول حياته وسكن بغداد ، فهي مسكنه وصباه ، وطاب عيشه فيها ، وأصبحت مسرح علمه ، ومعهد انسه ولهوه ، وملتقى أصفيائه ، وحينما تربص الخصوم به الدوائر وأصابوه بسهام بغيهم ، خرج منها إلى الشام ، وسكن دمشق ، والألم يعصر فؤاده ، وبقي يتعقب أخبارها ، ويتشوق إليها ويحن إلى ربوعها وفيها يقول [٢] :

فأَنا اليـــومَ بالشّآمِ وحيــدٌ لِســـنَا البـــارقِ العراقيِّ شـائمْ

لا ودودٌ على وفائــي مقيــمٌ لا وفـــي بشـــرطِ وُدِّيَ قــائمْ

مبتَغى قلبي المشوق ببغدا دَ وجسمي نائي المحلِّ بجاسمْ*

ويتطرق الشاعر في شعره الى اتجاهات مكانية منها الشرق والغرب ، فهده الاتجاهات إشارة إلى مناطق وأمكنه شرقية وغربية ، ليعطي مفهوماً واضحاً عن الخليفة العباسي انه حكم الشرق والغرب بأسره ، وكان يردد أماكن أحبها في شعره أهمها عاصمة الدولة الإسلامية ودار الخلافة بغداد فيقول [٣] :

ولكَ المأثراتُ في الشرقِ والمغ ـربِ يُروى حديثُها المأثورُ

وببـغـدادَ قيـــلَ إن دمشــقـاً ما بها للرجا سـواك مجيرُ

وقد نال الناصر لدين الله نصيباً من مديح العماد ، ذلك الخليفة الذي وقعت في زمنه اعنف المعارك وأشدها في الشام بين الصليبيين والمسلمين ، وكانت معركة (حطين) دافعاً لنظم تلك القصيدة

---

[١] – ديوانه : ص ٤٢٠ .

* جي : مدينة قديمة عند اصفهان (معجم البلدان : ص ٢ / ٢٠٢) .

[٢] – ديوانه : ص ٣٦٧ .

* جاسم : قرية بينها وبين دمشق فراسخ (معجم البلدان : ص ٢ / ٩٤)

[٣] – ديوانه : ص ١٨٣ – ١٨٤ .

، ومجالا رحباً لتقديم الطاعة والولاء ، فردد أماكن وبلدان لها قدسيتها لدى المسلمين منها ((القدس)) إذ يقول فيها [1] :

أَبشرْ بفتح أَمير المؤمنينَ أَتى وصيته في جميع الأرض جوّابُ
بفتحه القدسَ للإسلام قد فتحتْ في قمع طاغية الإشراك أبواب

ومن اللافت للنظر ان الشاعر دائما ما يشير إلى وحدة البلاد والمدن آنذاك تحت راية واحدة ، فتكون هذه الأماكن مدعاة للقوة والباسلة والشدة ، وكذلك تضافر القوميات المختلفة في هذه الوحدة ، وهذا أشد ما يخشى منه الأعداء ، لما في ذلك من قوة تشكل خطراً أمام أطماعهم يقول [2] :

دانتْ لكَ الدُّنيا فقاصيها إذا حقّقْتَهُ لنفاذِ أَمرِكَ دانِ
فمنَ العراقِ إلى الشامِ إلى ذُرَى مصْرٍ إلى قُوصٍ إلى أسْوانِ
لم تَلْهُ عن باقي البلاد وإنّما ألهاكَ فَرْضُ الغزوِ عَن هَمَذانِ
للرومِ والإفرنج منكَ مصائبٌ بالتّرك والأَكرادِ والعُربانِ

كانت الإخطار والخطوب تحيط بالأمة الإسلامية من كل جانب ((أدرك الشاعر إن مشكلة الأمة الإسلامية ومعاناتها الرئيسية تكمن في تجزئتها ، وتفرق كلمتها وان الفرقة واختلاف الأهواء ، هي التي هدرت طاقتها ، وجعلتها وأرضها لقمة سائغة للغزاة والطامعين بها ، ذلك لان صراع أمتهم مع أعدائها ليس صراع بين قائد وقائد ، أو بين فئة وفئة ، إنما صراع ديني حضاري ، يسعى إلى تغيير ملامح الأرض الإسلامية ، وتركيبتها الاجتماعي ، وعقيدتها وتراثها ، لذا فقد مضى يحث الأمة على نبذ خلافاتها الداخلية ، وتجميع صفوفها تحت راية واحدة)) [3] ، لقد بسطت الأسرة الأيوبية الحاكمة نفوذها على مصر والشام ومناطق أخرى من الجزيرة العربية ؛ ولذلك نجد الشاعر يتغنى بتلك الأماكن في قصائده فهي مواطنهم التي سكنوا فيها ، وبسطوا سيطرتهم عليها ، ويظهر اثر حب هذه الأوطان من تشوقه إلى هذه البلدان لأنها مواطن عزيزة على قلبه يقول في تفضيل الشام[4] :

وما جنةُ الخُلْدِ إلا دِمشقٌ وفي القلبِ شوقاً إليها سَعيرُ
وجامعُها الرحبُ والقُبةُ الـ ـمُنيفَـةُ والفـلَكُ المُسـتديرُ
وفي قبةِ النسْرِ لي سادةٌ بهـم للمكـارمِ أُفْـقٌ مُنيرُ

---

[1] – ديوانه : ص ٧٥ .

[2] – المصدر نفسه : ص ٤١٧ .

[3] – الخطر الصليبي أبعاده ومقاومته من خلال شعر معاصريه ، حامد الكيلاني : مؤتة للبحوث والدراسات ، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا ، جامعة مؤتة / الأردن ، مج ١٠ ، ع٢ ، ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م : ص ٢٧٨ .

[4] – ديوانه : ص١٨٧ – ١٨٨ .

وبابُ الفراديسِ فرْدَوسُها وسُكانُها أَحسَنُ الخلقِ حورُ

فهنا نراه يفضل الشام على باقي الأماكن والمواطن ، فالشاعر ارتبط ارتباطا نفسيا تجاه الشام ، لأنه يجد فيها الراحة والاطمئنان ، والدليل انه وصف وشبه دمشق بجنة الخلد وشوقه إليها يكاد يحرق قلبه ، فيذكر مكان جامعها وقبته التي تجمله ، كأنه فعلا في جنة فيها الفردوس والحور العين لجمال سكانها وباب الفراديس فردوسها ، كان العماد محقاً في تشوقه وحنينه لذلك المكان .

يبدو إن الشاعر يعطي المكان الذي يسكنه ويعيش فيه لا يحسبه مكان فقط ومسكاناً بل يعيشه بوجدانه وإحساسه فلا يترك بلد إلا يجعل له المكان العميق في قبله لأهميته ، فعندما ترك مصر، ظل يتشوق إليها ، وقد ذكر كيف أنَّ الشوق لذع قلبه فقال [١] :

يا ساكني مصر لا والله ما لكمُ شوقي الذي لذعتْ قلبي لواعجُهُ

ونراه في قول آخر يُفضّل أهل مصر على باقي البلدان فيقول [٢] :

يا ساكني مصر قد فقتم بفضلكم ذي الفضائلِ من سُكانِ أَمصارِ

٢- **المدن :** أخذت مسميات عدة لمدن العربية والإسلامية مكانها الأرحب قي شعره فقد عاش فيها ، وقضى فيها سنوات عديدة من حياته ((والمدن التي تناولها الشعراء كثيرة ، منها ما يكتسب خاصية دينية ، ومنها ما يعطي امتيازا خاصا بالأشياء التي تشتهر بها ، وأخرى لها منزلة اجتماعية يحددها النظام السائد)) [٣] ، فعصر الشاعر كان عصر الحروب الصليبية وقد وقف الشعراء يدافعون عن الإسلام ومقدساته ((فكانت القدس في مقدمة المدن التي امتلكت القدسية المكانية)) [٤] ، فهو يوصي القائد صلاح الدين بفتح مدينة القدس وتخليصها من أيدي الكفار؛ لتعود إلى حمى الإسلام ؛ فيقول [٥] :

فَسرْ وافتحِ القدسَ واسفكْ بهِ دماءً متى تجرها ينظفِ

وفي موطن أخر يذكر مدينة واسط فيقول [٦] :

بواسِطَ مكثي لانتظارِ مواعدٍ لها وليومٍ يمكُثُ السّيفُ في الغمْدِ

---

[١] – ديوانه : ص١٠٥ .

[٢] – المصدر نفسه: ص ١٩٥ .

[٣]– المكان في الشعر العربي قبل الإسلام : حيدر لازم مطلك ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – جامعة بغداد ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م : ص ٥٩

[٤]– ينظر مضمون الأسطورة في الفكر العربي : د. خليل احمد خليل ،ط٢ ، بيروت ، ١٩٨٠م : ص ٧٠

[٥] – ديوانه : ص ٣٠٤ .

[٦] – المصدر نفسه : ص١٤١ .

ومن الأماكن التي انتقل إليها الشاعر ، ((منبج)) يقول في نزوله مع السلطان صلاح الدين قلعة منبج [١] :

نزولُك في منبجٍ على الظّفَرِ المُبهجِ

ويذكر مدن في الشام [٢] :

تركـــنا دمشـــقاً والجنـــانُ وراءَنا وقـــــد أَمّنا بالكســـوةِ الرفقةَ السّفرا
وجئنا إلى المَرْجِ الذي طابَ نشرُهُ فـــلا زالَ مـــــن أَحبابنا طَيّباً نَشرا
رحلنا بمرجِ الصُّفرِ بالعيسِ غدوةً فسارتْ وحطّتْ فـي محجَّتها ظـــهرا
وقد قطعتْ تُبْنى إلى الديِّرِ بعدها وما عرستْ حتى أناختْ على بُصرى
نزلنا الدّناحَ والجـــلاعبَ بعـدها وبعـــدهما غـــدرَ البشاميَّةِ الغزرا
ورأسَ الجشـــا والقريتينِ وكلُّها مواردُ فيها السُّحبُ قـد غادرتْ غدرا
وردنا من الزَّيتونِ حِسْمـىَ وأَيلة وجـــزنا عُـقاباً كـــان مسلكها وعرا
إلى قلّةِ الـــرَّاعي إلـى نابعٍ إلى جراولَ فالنخلِ الذي لـــم يـزل قفرا

يستهل في هذه الأبيات بذكر العديد من الأماكن التي نزل بها مثل : الكسوة ، المرج ، تبني ، الدير ، حيث هناك عدة أديره في منطقة حوران منها : ((دير أيوب ، ودير الباعقي ، ودير بصري ، ومدينة بصرى ، أما رأس الجشا ، والدناح ، والجلاعب ، والبشامية امكان نزلها ، اما باقي المدن مثل القريتان من أعمال حمص في طريق البرية ، الزيتون : جبل بالشام وجسمي : ارض قيل جبل قريب من وادي القرى ، وأَيلة ، عُقاباً ، قلة الراعي ، نابع ، جراولَ ، النخل : موضع في طريق الشام من ناحية مصر)) [٣] ، فكان لها مكانٌ عزيزٌ في قلب الشاعر .

هنا نرى الارتباط النفسي واضحا في شعره ، فدمشق بالنسبة للشاعر المكان المألوف لأنه يذكر ديار الأحبة وصبابات النفس ، فالشاعر يفضل دمشق على سائر البلاد في قوله [٤] :

دمشقُ عنديَ لا تُحصَى فضائلُها عَـــدّاً وحَصْـــراً ويُحْصَى رَمْـــلُ يَبْرينِ*
ومـــا أَرى بلدةً أُخـــرى تُماثِلُها في الحُسْنِ من مصرَ حتى مُنْتَهى الصِّينِ
فـــي كـلِّ قُطرٍ بها وَكْرٌ لِمُنكَسرٍ ومســـكـنٌ غيـــرُ مَمْلـــولٍ لِمســكينِ

---

[١] – ديوانه : ص١٠٣ .

[٢] – المصدر نفسه : ص١٥٦ – ١٥٧ .

[٣] – ينظر شعر العماد الدين الاصبهاني ((دراسة فنية موضوعية)) : رضا حمودة حمودة علي ، دار العلم والإيمان ، ط١ ، دسوق ، مصر ، ٢٠١٨ م : ص ١٩٥ .

[٤] – ديوانه : ص ٤٣٢ .

* بيرين : من أصقاع البحرين وهناك الرمل الموصوف بالكثرة (معجم البلدان : ص ٥ / ٤٢٧)

ويبدو أنَّ العماد شاعر موضوعي ، إذ كان يتحسس معاناته ، ويتعاطف معها ، وينعتها فقد رأى دمشق ما لم يره غيرها ، ووجدها أهلاً لان توصف ويتحدث عنها حديث الشوق والحب ، ومما استوقف شاعرنا العماد في هذه المدينة الأصيلة ، وفرة ثمارها وتنوعها وتميزها على الأمصار ، فوصف حسنها لأنَّه لا مثيل لها سواء في مصر او في الصين ، فوصل إلى ابعد مكان بالأرض لمنتهى الصين ، فما يجد العماد مناسبة حتى يعطي عمقاً كبيراً للأمكنة في قربها وبعدها ، فدمشق بما حباها الله من هذا الخير الكثير الذي شدَّ بصره ، إن المدينة هنا اكتسبت سمة الحضور الوجداني لتكون معادلاً شعورياً لحياة خاصة وزمن خاص، قد يصعب على الشاعر إيجاد نظير لتلك الحياة أو تكرار لذلك الزمن ، وذلك حصيلة أنَّ ((ارتباط المكان بأزمنة معينة، يمنحه إمكانية اكبر للوجود، واكتساب الصفات الإنسانية التي يجد الشاعر فيها العزاء والمواساة)) [١] .

إن ذكر الأماكن ودخولها في ضمن مدح المدن ، هو الفن الذي شاع في عصره و((ندر أن نجد له مثيلا في العصور الأدبية الأخرى)) [٢] ، وهكذا نجد المدن التي ذكرها الشاعر هي مدن عاش فيها ، وكان مبدعا في ذكرها مدن ذات تأثير واضح في حياته ونرى كان متوسعا ((في التحريض على مجاهدة الصليبين الذين أغاروا على بلاد الشام ومصر في هذا العصر ، وحث الناس على استخلاص المدن من أيديهم)) [٣] ، وكان للشاعر استحضار مدن والأماكن تاريخية قديمة في شعره ، يربطها مع غرض المديح لغطي للممدوح (الخليفة المقتفي) عمق تاريخي ، عمد فيها إلى نهج وأساليب القدامى ، بمقدمة طللية غزلية أطال فيها لحين ما يوصل لعرض المديح ، يقول هذه قصيدته [٤] :

وأَغنَّ أَغنى طَرْفُه فـي سحرهِ ورُضابُه في سكرهِ عـن بابلِ

طالَ التردُّدُ في البلادِ فلم أَفزْ منـها على رغمِ العدوِّ بطائلِ

إن إيراد اسم المكان التاريخي "بابل" في المقطع الشعري جاء ليكسب المكان بعداً أعمق في مخيلة المتلقي، ويكون له دور أكثر ثراءً وغنى في بناء وتشكيل مفهوم مغاير لصورة مكان الألفة الجديد، ويتم ذلك من استحضار المكان التاريخي "بابل" في النص الشعري، ليمنح النص أبعاداً اشمل، وانفتاحاً أعمق وواسع على التراث ليقوي بذلك تواصله مع الماضي من اجل بناء صورة الحاضر وإتمامها بان يمتلك المكان التاريخي من النص القدرة على التجدد وإكساب الحضور الشعري في النص[٥] ، وكيف كان

---

[١] – من دلالة المكان في شعر التسعينات في سورية : حباب بدوي، مجلة الكاتب العربي، عدد ٤٩ – ٥٠ ، كانون الأول ، سنة ٢٠٠٠ م : ص١٢٧ .

[٢] – الأدب في العصر الأيوبي : د. محمد زعلول سلام ، مصر ، ١٩٧٦ م : ص١٧٥ .

[٣] – المجمل في تاريخ الأدب العربي : طه حسين ، واخرون ، القاهرة ، ١٩٣٠ م : ص١٣٣ .

[٤] – ديوانه : ص٣٤٦ – ٣٤٧ .

[٥] – المكان في شعر الحرب : ص ١٢٤ .

يجوب الأماكن والبلدان ولم ينل حظاً من محبوبته ، في صورة غزلية توحي بالحب ؛ إلا إن الغاية منها المديح ، فأجاد الشاعر كثير في تصوير هذه الغزل شانه شان من سبقه من الشعراء القدماء في ذلك الإبداع .

٣- المنازل والديار : تردد في ذكر ألفاظ هذه الأمكنة ، في ذكر المنزل يقول [١] :

إلى منزلٍ في روضةِ الجملِ اغتدتْ به عيسنا في صدرِ شارحه صدرا

وفي ذكر الدار يقول [٢] :

للهِ دركمُ من عُصبةٍ كرُمتْ ودر مصركمُ الغناء من دارِ

فغالباً ما نجد إن السكن في أماكن يغلب عليها السكون والهدوء، يسفر عن إنسان منحاز الى الصمت والسكون ؛ أكثر من الانفعال والحركة ؛ وإذا اقترن سكون المكان بجمال الطبيعة، وعناصر الحياة فيها، فسيكون له دوره الفاعل في صقل الإحساس مما يشوبه من أدران فرضتها عليه نظم اجتماعية معينة، فيصبح السكون حاملاً لبذور حركة ايجابية ، ونابعاً من معنى الحياة ، مثقلاً بثمارها، وليس العكس [٣] .

٤- البيوت : البيت هو ((كون حقيقي ؛ بكل ما للكلمة من معنى)) [٤] ، وقد ورد ذكره في شعر العماد يقول [٥] :

مولايَ ضجرتُ من لزومِ البيت كالميتِ وما أَوحشَ بيت المَيْتِ

هنا في قول الشاعر يعبر عن ((البيت)) ولزومه له من مكان أليف إلى مكان معادٍ فقد أقام فيه ثلاثة أشهر ملازماً فيه ينتظر الفرج ، فاخذ يستعطف الوزير جلال الدين الأصفهاني بالخروج منه وشبه حاله بالميت ، وهو ملازم البيت ، وأستوحشه حتى كنى إليه بالقبر وليس بالبيت .

والبيت سواء أكان خيمة أم قصرا ((يحمل دلالات كثيرة ، ويتعدى ذلك إلى مفاهيم أوسع وأشمل ، فهو الوطن والكيان الذي يحمل الرمز والتاريخ والمطامح)) [٦] ، إنَّ البيت ((هو ركننا في العالم، إنّه

---

[١] – ديوانه : ص١٥٧ .

[٢] – المصدر نفسه :ص١٩٥ .

[٣] – المكان في شعر الحرب : ص٧٣

[٤]– جماليات المكان : ص٤٢

[٥] – ديوانه : ص٩٦ .

[٦]– دلالات المكان في تعميق الجو النفسي للشخصية في الفلم السينمائي : فادية فاروق ، رسالة ماجستير ، كلية الفنون الجميلة – جامعة بغداد ، ٢٠٠١ م : ص٢٦ .

... كوننا الأول، كون حقيقي بكل ما في الكلمة من معنى)) [1] ، وقد يحدد البيت أبعاد كيانه ، بأبعاد أوسع تحيط به ويكسب منها بعض ملامح هويته تصميمه ، وسعة البيت من ناحية دليل على سعة طموح من يسكنه. فقد لا يتجاوز طموح الإنسان سوى العيش في أمان واكتفاء غير طامع بما وراء ذلك [2] .

وقد يرد البيت بمعناه المجازي أو الشمولي ليكون ذلك المكان ((الذي يسبغ على الجماعة البشرية ... حمايته ورعايته مما يجعل هذا المكان خالدا في ضمير هذه الجماعة البشرية ، قبل ان يكون خالدا في تاريخها)) [3] ، وفي ذلك قول الاصبهاني [4] :

لـمـا رأَيتُ مَنـــارَ بيتكَ كعبةً وافيتُ فيمن حَجَّ بيتكَ واعتمرْ

وهجرتُ أَوطاني إليه ومَن رأَى شرفاً لـه فـي أَنْ يفارقها هَجَرْ

القصيدة وان تناولت الشاعر فيها جوانب حماسية ، اقتضتها المناسبة ترسم صورة لخليفة المسلمين ، وهو يسوس العباد بالعدل والإنصاف ، ويبعد عنهم الحيف والضيم ويصرح في خاتمتها ، بصياغة جميلة أسباب هجر الأوطان ونايه عن الخلان وانتمائه إلى أطيب وأندى منبت ، فشبه بيت الخليفة منار وأمان لكل خائف وجل ، كما إن ((الكعبة الشريفة)) أمان لكل مسلم ، فيكرر التشبيه في لفظ بيت الخليفة بالبيت الحرام ، كما يحج الحجيج بيت الله للحج والعمرة ، جعل التردد لبيت الخلافة حجاً وعمرة من مقام الرفعة وليس العبادة ؛ لأنَّ الشاعر هجر جميع الأوطان ((والأوطان)) كذلك دلالة للمكان ، وأتخذ شرف مقامه عن الخليفة أعلى المنازل .

ذكر لفظ البيت في مستهل شعره واصفاً البيت المقدس حين فتحت القدس [5] :

ففي موافقة البيت المقدَّس للـ بيت الحرام لنا تيهٌ وإعجابُ

---

[1] – جماليات المكان : ص٣٦.

[2] – المكان في شعر الحرب : ص٧٢ – ٧٣ .

[3] – البناء الفني في الرواية العربية : ص٩٣ .

[4] – ديوانه : ص١٥٤ .

[5] – المصدر نفسه : ص٧٥ .

المبحث الثالث : المكان الحربي

لقد ((اخذ شعر الحرب مساحة في القصيدة العربية ، واتسعت مدولاتها في إطاره الشعري ، وأغنيت مفرداتها عن طريق استخدام الشعراء للمفردة الشعرية التي كانت تتحرك في دائرة المعاني ، وشحنت ألفاظها بقدرات المقاتلين الأشداء الذين كانوا يغنون عطاءها بتضحيتهم ، ويوقدون سعيرها باقتحامهم)) [١] ، والشعر المواكب للأحداث يسير جنبا إلى جنب في الظفر بالصورة الموحية واللفظة للتعبير عن ما يورد في خلجات الشاعر من نقل صور حقيقية يعيشها الشاعر ويخوض غمارها فـ ((يسجلون لوحات المفاخر الخالدة ، والمآثر التي يظل صداها يعيش في قلوب الرجال الذين يستذكرونها باعتزاز ويعيشونها بإباء ويمتثلون بها كل ما دعت الحاجة إليها))[٢] ، وفي الشعر الحربي لدى الشاعر ، ما يعد التمثيل الحقيقي للمكان سواء أكان لدى المشارك أم من ممدوحه الأمير ، أو الحاكم ، أو قائد الجند ، والقصائد المتراكمة في هذا المجال ما يبوح عن كنه المشاعر الحقيقية التي تعتلي المرء في ميادين القتال [٣] .

فكان الشاعر من أهم الشعراء الذين اخذ المكان صداه الكبير في قصيدة الحرب والشعر الحربي ((ولمّا كان الشعراء ضمير الأمة ولسانهم المعبر عن همومها وتطلعاتها ، فقد اتخذوا من أشعارهم أداة لمقاومة الغزاة ، والتحريض على مواجهتهم ، وتحرير البلاد المغتصبة من أيديهم إذ اتخذوا من الكلمة المعبرة الموحية المؤثرة وسيلة لتصوير خطر الفرنج والتصدي لهم فعملوا بذلك على استثارة الهمم وشحن النفوس ، وحثها على التضحية والموت في سبيل الله ونصرة دينه وتحرير الأماكن المقدسة))[٤] ، فالشاعر على مرأى ومسمع من هذه الأحداث ، فسخر شعره يستصرخ ويستنجد بالقادة المسلمين لتدارك حالهم ، وإنقاذ مدنهم من هذا العدو الغاشم ، فكان صوت العماد يصدح بأعلى صوته لشحذ الهمم واستنهاض القادة لتطهير الأماكن المقدسة واهما القدس الشريف فقد كان يوصي بالغزو القائد صلاح الدين الأيوبي لأخذ زمام الأمور وتطهيره حيث يقول [٥] :

أُغْــزُ الفرنــجَ فهـذا وقـتُ غــزوهِمُ ... واحطِمْ جموعهمُ بالذَّابلِ الحـطِمِ

وطهّرِ القدسَ من رِجْسِ الفرنجِ وثبْ ... على البغاثِ وثوبَ الأجدلِ القَطِمِ

فملكُ مصــر وملكُ الشامِ قـد نظما ... في عِقْدِ عزٍ من الإسلامِ منتظمِ

---

[١] – شعر الحرب في عصر الرسالة : د. نوري حمود القيسي ، منشورات دار الجاحظ ، الموسوعة الصغيرة ، بغداد ، ١٩٨٢م : ص ٣ .

[٢] – المصدر نفسه : ص ٣ .

[٣] – ينظر المكان في الشعر الأندلسي : ص١٢٥ – ١٢٦ .

[٤] – الخطر الصليبي أبعاده ومقاومته من خلال شعر معاصريه : ص٢٦٧ .

[٥] – ديوانه : ص٣٨٢ .

ولا يستطيع الشاعر أن ينسى مأساة القدس أو يسلوا عنها ، وكيف ينسى الجريح جرحه وهو ينزف دماً ، وكيف ينسى عن عشق الجهاد والكد والتعب ، إذ يجد راحته ولذته في ذلك ؛ لذا نراه يعرج على ذكر القدس بين الحين والأخر ويدعو صلاح الدين إلى النهوض إليها وإسعافها وتخليصها من دنس الطغاة وكشف كربتها ، إذ يقول [١] :

نهوضاً إلى القدسِ يشفي الغليلَ بفتحِ الفتـــوحِ ومـاذا عسيرُ
سَلِ الله تسهيلَ صعب الخطوب فهو على كـل شيءٍ قـــديرُ
وفجـــركَ فيه القـــرى والقـــران جميعاً وفجرُ الجميع الفجورُ

فالشاعر ذات الحس الديني والقومي والوطني الصادق الخالص في شعره ؛ الذي ينبع من روحه الصادقة وعواطفه الجياشة نحو المكان الطاهر ، فالعماد يستنهض الهمم ، لكي يشفي عليله من الأعداء الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر ، فالشاعر يدرك مأساة أخوانهم هناك وما يلاقونه من ألوان العذاب ، فسماه بفتح الفتوح ، إذ إن ذلك ليس بصعب أو عسير ، ويسال الله تسهيل المهمة والنصر واسترداد المكان الشريف ، فجعل كل الآمال معلقة وترتقب صلاح الدين ، كي يخلص القدس الحبيب الغائب واسترجاع الحق لأهله ليفرح به كل إنسان غيور على وطنه ، فربط القرى المكان بالقران إشارة منه إلى قدسيته .

فالأدب أدائه العواطف ، وهو الذي يحدّث عن شعور الكاتب ويثير شعور القارئ ، ويسجل أدق مشاعر الحياة وأعمقها ، فإذا اثر في العواطف ظلت ناحيته الأدبية باقية ، فإثارة العواطف هي العنصر الظاهر في الأدب ، فإذا كانت هذه الإثارة هي أهم غرض الأديب ، كان لنا من هذا شعر أو أدب كفن من الفنون الجميلة [٢] ، لم يتوانَ الشاعر عن أي مناسبة تحصل حتى يعود ويكرر على تطهير بيت المقدس ، فحين تقلد أسد الدين الوزارة بمصر إلى التوجه بعدها للقدس ، وفي ذلك يقول الشاعر [٣] :

بالجدِّ أَدركتَ مـــا أَدركتَ لا اللّعب كم راحةٍ جُنيَتْ مـن دوحةِ التّعبِ
تَمَلَّ مـــن مُلْكِ مصرٍ رتبةً قصرتْ عنها الملوكُ فطالتْ سائرَ الرُّتَبِ
افخـــرْ فإنَّ ملـوكَ الأرضِ قـاطبةً أَفلاكُها منكَ قد دارتْ على قُطَبِ
فتحتَ مصرَ وأَرجو أَن تصير بها مُيَسَّراً فتحَ بيت القدس عن كَثَبِ
قد أَمكنتْ أَسدَ الدِّين الفريسةُ من فتـحِ البـلادِ فبادرْ نحـوَها وَثِبِ

---

[١] – ديوانه : ص١٩٤ .

[٢] – النقد الأدبي : احمد أمين ، دار الكتاب العربي ، ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٦٧ : ص٤١–٤٢ .

[٣] – ديوانه : ص٧٩ – ٨٠ .

عارض العماد في هذه الأبيات قصيدة ابي تمام لما لها من صدى واسعة وتأثير قوي ومباشر عند القائد ، فكما أنَّ قول أبي تمام أثار المعتصم في فتح عمورية ، كذلك شبه موقف القدس كعمورية فأراد عن طريقها أن يبادر بالتوجه بقوة إلى هذا المكان المقدس الطاهر فكان التوثيب مباشر وأشار إليه بشدة ((فقد نظر الشاعر إلى استعادة الأرض الإسلامية المغتصبة عامة ، وبيت المقدس خاصة نظرة إجلال وتعظيم ، لما لها من مكانة وقداسة في نفس الإنسان العربي المسلم وضميره ؛ وذلك لأنه لا ينظر الى الأرض على أنها تراب أو وطن ، وإنما ينظر إليها على أنها جزء لا يتجزأ من عقيدته التي يموت من اجلها ، ويضحي بماله ونفسه وأهله ، لتظل عزيزة عسيرة المنال ، ولذا فقد كان الحديث عن الأرض المغتصبة قضية محورية ، ولحناً مميزاً يردده الشاعر في أشعاره وقصائده ، وخاصة اثر أي انتصار يحرزه المسلمون ، أو حينما كان الشاعر يعبر عن فرحته بأية مدينة تتخلص من قيود الاحتلال وتعود إلى حمى الإسلام))[1] ، في قوله مخاطباً القائد صلاح الدين [2] :

أَيبلغُ دهــريَ قصــدي وقــد ... قصدتُ بمصـرَ ذُرَى يوسفِ
ويوسفُ مصــر بغيــرِ التُّقى ... وبذلُ الصَّنائع لـــم يوصفِ
فَسرْ وافتحِ القدسَ واسفكْ بهِ ... دمــاءً متــى تجرهــا ينظفِ
وأهـــدِ إلــى الأَسْــبار البتار ... وهُـدّ السُّقوفَ على الأسقفِ
وخلِّصْ من الكفرِ تلكَ البــلادَ ... يُخلِّصُكَ اللّهُ فـــي الموقفِ

يشير الشاعر إلى قصة سيدنا يوسف حين ملك مصر وحكمها ، فاستخدم أسلوب الأمر في قوله (فسر ، واهد ، وخلص) ليعطي قوة للفعل المراد تنفيده ، فمقصد العماد أن صلاح الدين سار على نهج النبي الكريم بن الكريم فحكم هذه البلاد العربية الإسلامية ، فذكر مكان مصر ثم بعدها يوجه أنظاره إلى مكان القدس ، فلا تختلف الأماكن من حيث مكانتها عند الجميع فَعَدَّ القضية واحدة ، فنجد ((إن المكان في قصيدة الحرب يعتمد في بنائه على بيان كيفية الحال النفسية الشعورية للإنسان وهو يدفع عن نفسه مخالب المنية، وعلى شكل تفاعله مع ما يشغله من أمكنة وما يحيطه من أشياء)) [3] ، فكانت القصيدة الحربية متعمقة بالمكان فـ ((في قصيدة الحرب يتوارد لدى العديد من الشعراء التقارن الموجود بين مكانين، مكان الشاعر، المكان الأليف، الوطن، المكان المعاش، ويتميز بالألفة والجمال والتناسق بين عناصره لإدامة الحياة واستمرارها، وبين مكان أخر يمثل مكاناً مناقضاً للأول. انه المكان المعادي – ارض الحرب –، مكان الدمار والقتل، المتشح بالظلمة والرعب. ومناظر الوحشية والذي ينطوي على

---

[1] – الخطر الصليبي أبعاده ومقاومته من خلال شعر معاصريه : ص٢٧٧ .

[2] – ديوانه : ص٢٠٣ – ٢٠٤ .

٣ – المكان في شعر الحرب : ص ٣٠ .

عناصر تتفنن في قطع جذور الحياة وتشويه صورتها)) [1] ، إن المكان هو الذي أثار مشاعر الشاعر ، ودفعه إلى نظم النص وجمله لوحيد عصره وقائد زمانه علَّه يسلَّ السيف ويطر الغاصب المعتدي ، فكشف بعمق واضح أن المكان الآني الذي يعيشه اليوم ، كيف كان في ما مضى وكيف سيكون في المستقبل ، وننظر إلى قول الشاعر فإنَّه أخذ المضمون الموضوعي بعداً جديداً إذ ركز إلى أهل الكفر والشر (العدو الصليبي الإفرنجي) يرى انه لا سبيل لإنقاذ القدس إلا بالقضاء عليهم [2] ، وكان مكان القدس في نظر الشاعر من المسلمات التي لا يمكن تناسيها أو التهاون عنها حتى يتم النصر واسترداده لما له من قدسية لدى قلوب المسلمين ، فكان يوصي بتوحيد الكلمة والقيادة ، لان الشاعر يدرك ، ((إن مشكلة الأمة الإسلامية ومعاناتها الرئيسية تكمن في تجزئتها ، وتفرق كلمتها وان الفرقة واختلاف الأهواء ، هي التي هدرت طاقتها ، وجعلتها وأرضها لقمة سائغة للغزاة والطامعين بها ، ذلك لان صراع أمتهم مع أعدائها ليس صراع بين قائد وقائد ، او بين فئة وفئة ، إنما صراع ديني حضاري ، يسعى إلى تغيير ملامح الأرض الإسلامية ، وتركيبتها الاجتماعية ، وعقيدتها وتراثها ؛ لذا فقد مضى يحث الأمة على نبذ خلافاتها الداخلية ، وتجميع صفوفها تحت راية واحدة)) [3] ، وهذا واضح في قوله مهنئاً نور الدين زنكي بفتح منبج ، وانتزاعها من حاكمها المحلي الأمير غازي بن حسان ، يقول [4] :

بُشرى الممالكِ فتحُ قلعةِ منبجٍ ... فلْيَهْنِ هــذا النصرَ كلُّ متوَّجِ
أُعطيتَ هذا الفتح مفتاحاً بــه ... في الملك يَفتحُ كلَّ بابٍ مُرتج
وافى يبشِّــرُ بالفتــوح وراءَهُ ... فانهضْ إليها بالجيوشِ وعرِّجِ
أبشرْ فبيت القدس يتلو منبجاً ... ولَمنبــجٌ لســواهُ كالأنمــوذجِ

ربط الشاعر فتح منبج بفتح القدس فنظرته إلى الأماكن واحدة ، فكان يَعدُّ إن القضاء على المتقاعسين عن تحرير بلادهم والخارجين عن وحدة الصف أمر محمود ، لأنَّهم كانوا السبب الحقيقي في تأخر النصر على الأعداء وهدر طاقة الأمة ، فإنَّ الشاعر كان حريصاً على استخدام القوة والسيف في المدن والحكام الذين يتمردون عن الجماعة الإسلامية ، ويخرجون عن وحدة الصف الإسلامي .

نرى سمات المكان الآني الذي يستصرخ الشاعر وثانية بالنقد والتعريض وهجاء جيش العدو والنيل من جنوده ، وثالثه يبث تعاليم الإسلام ، وبعث الروح المعنوية للجيش الإسلامي الذي يرابط في سبيل الدفاع عن ارض المسلمين وكرامتهم ومحارمهم [5] ؛ لذا كان يشدد على تطهير بيت في كل مناسبة حتى

---

[1] – المكان في شعر الحرب : ص ٤٢ .
[2] – ينظر المكان في الشعر الأندلسي : ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .
[3] – الخطر الصليبي أبعاده ومقاومته من خلال شعر معاصريه : ص ٢٧٨ .
[4] – ديوانه : ص ١٠٢ .
[5] – ينظر المكان في الشعر الأندلسي : ص ٢٣٨ – ٢٣٩ .

في موطن الرثاء يذكر بقدسيه المكان ففي رثاه للقائد نور الدين حين وافته ((وكانت أمنية نور الدين في الحياة ، استرداد القدس من الفئة الطاغية التي دنست ارض العرب والمسلمين بأقدامها ، متذرعة بأوهى الأسباب ، على حين كانت تضمر البقاء الدائم ونيل المغانم ، ولهذا مضى نور الدين يجاهد من اجلها ويمني النفس بإعادتها ، وتشوق لهذا اليوم الموعود ، وصنع منبراً ثميناً ليوضع يوم الفتح في مسجدها الأقصى ، ولكن الموت حال دون نيل مناه في انتزاع هذه المدينة من أيدي المعتدين)) [١] ، يقول [٢] :

أَو مـــا وعـدتَ القدس أَنك منجزٌ ميعادَهُ فـــي فتحهِ وظهورِهِ

فمتى تجير القدس من دَنَسِ العدا وتقدس الرحمن في تطهيرِهِ

لم ييأس الشاعر ولم تعرف نفسه الشامخة الأبية الاستسلام ، على إن الوضع في الشام وخصوصاً القدس أكثر من أن يوصف فقد كثرت الاعتداءات وأحدقت الأمة الإسلامية بالويلات ، والمخاطر من كل جانب وصوب ، والمدن محتلة ، وبقي الشاعر أمام كل هذه الويلات في خوف وأمل يسعى من شعره لاستنهاض الهمم وطلب النجدة ممكن يتأمل فيهم زوال شدته وتفريج كربته [٣] ، ليعود بالتذكير بالمكان الطاهر وعدم إهماله يقول [٤] :

ولا تهملوا البيتَ المقدَّسَ واعزموا على فتحهِ غازينَ وافترعوا البكرا

أكد الشاعر على التلاحم المصيري بين أبناء الأمة في مواجهة عدوها الغاشم ، وذلك بتعزيز الأسلوب الإنشائي الطلبي واعتماده أسلوب الأمر ؛ تحقيقاً لما يثير في وجدانه من أحاسيس ، إذ قام النص على أساس ثنائية (النفي والإثبات) التي جسدت عبر الحركة مزدوجة مجموعة من المفاهيم كانت جديرة بتحقيق التواصل الانفعالي مع المتلقي ، فالدلالة المكونة لبنية النص في (ولا تهملوا) أسهم بشكل فاعل في نقل البنية من دائرة النفي إلى دائرة الإثبات [٥] ، فأراد الشاعر الانتقال من دائرة النفي إلى دائرة الإثبات ، وتحقيق الأمر المنشود الذي ما زال يقلق الشاعر كثيراً فاستخدم أساليب عدة عسى من ذلك الوصول لمبتغاه ، فالشاعر لسان جماهيره فلم يكن الأمر مطلب فردي بل كانت غاية جماعية وعلى الكل تحمل المسؤولية في استرجاع الأماكن الإسلامية والعربية المغتصبة ، فنجده يعطي دلالة

---

[١] – مقدمة الديوان : ص ٢٧ .

[٢] – ديوانه : ص ٢١٥ .

[٣] – ينظر أدب الاستنجاد في الأندلس من القرن الخامس الهجري إلى القرن السابع الهجري : بن يوسف مصطفى ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٨٥م : ص ٥٦ .

[٤] – ديوانه : ص ١٦١ .

[٥] – ينظر شعر الحرب في عصر بني أيوب ((٥٦٧ هـ – ٦٤٨ هـ)) دراسة أسلوبية : إبراهيم محمد مصلح ، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة الانبار ، ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م : ص ٧٦

مكانية في لفظ ((البيت)) بعدها دلالة دينية ((المقدس)) ؛ ليوضح أنَّ الأمر جلل ولا يمكن السكوت عليه ، ومتعلق بالدين والعقيدة والمكان .

بعد أن تحقق حلم الشاعر وطهرت أرض القدس انشد الفرح في كل مكان وبعث بقصيدة رائعة هنأ بها الخليفة في بغداد يزف بها بشائر النصر المبين ، فكانت معركة حطين الشرف والنصر للإسلام والمسلمين حيث يقول [١] :

أَبشرْ بفتــح أَمــير المؤمنيـــنَ أَتى ... وصيته فـي جميع الأرض جوّابُ
بفتحه القـدسَ للإسلام قـــد فتحتْ ... فـــي قمع طاغية الإشراك أبواب
ففـي موافـقة البيـت المقـدَّس للـ ... ـبيت الحـــرام لنا تيهٌ وإعجابُ
والصخـــرُ والحجـــرُ الملثـومُ جانبـهُ ... كلاهما لاعتمار الخلق محرابُ
نفى مـــن القـــدس صلباناً كما نُفيت ... مـــن بيـت مكّة أَزلامٌ وأَنصابُ
بطاعة النّاصر بن المستضيء أبي الـ ... ـعباس أحمـــد للأَيـام أصحابُ

أعلن الشاعر البشارة في تحرير بيت المقدس للخليفة العباسي أمير المؤمنين رمز السلطة الإسلامية ، وقد ذاع صيت النصر والتحرير كل الأماكن الإسلامية وهو نصر للإسلام والمسلمين جاب الأرض كلها فرحاً ، فربط مكان البيت المقدس بمكان البيت الحرام ، وكيف تطهرت القدس الشريف من صلبان الإفرنج شبهها كما طهرت الكعبة الشريفة ومكة من الأزلام والأنصاب ، فاعتبر الموقف والمشهد واحد ، قد ((شكل الغزو الصليبي لبلاد الشام خطراً حقيقياً على الإنسان العربي المسلم من حيث وجوده ، وعقيدته ، وأرضه ، وحضارته ، ومقومات حياته ، ومصادر رزقه ، مثلما كان خطراً على حريته وتنقله داخل البلاد ، منها واليها ، لان الغزو الصليبي ، لم يكن مجرد غزو عسكري خاطف تقوم به الجيوش ، ثم تعود إلى موطنها ، إنّما هو غزو استيطاني يسعى إلى السيطرة على الأرض ، والى القضاء على المسلمين)) [٢] ، لم يقف العماد عند حد تحرير القدس فقد أوصى القائد صلاح الدين التوجه إلى كل الأماكن الإسلامية لتطهيرها من دنس الغزاة المحتلين حيث يقول [٣] :

قـلْ للمليكِ صلاحِ الدينِ أَكـرمَ مـــن ... يمشي على الأَرضِ أَو مَنْ يركبُ الفَرسا
من بعدِ فتحكَ بيت القدس ليس سوى ... صـــورٍ فإنْ فُتحـتْ فاقصـــدْ طرابلسا
أَثــرْ على يـــومِ انطرسوسَ ذا لجبٍ ... وابعـثْ إلى ليـــلِ أَنطـاكيـــةَ العســسا
وأَخــلِ ســاحلَ هذا الشـــامِ أَجمعه ... مـــن العداة ومـــنْ فـــي دينهِ وكوّسا

---

[١] – ديوانه : ص ٧٥ – ٧٦ .

٢ – الخطر الصليبي أبعاده ومقاومته من خلال شعر معاصريه : ص ٢٦٨ .

[٣] – ديوانه : ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .

نزلـــتَ بالقـــدسِ فاستفتحتَهُ ومتى تقصـــدْ طَرابُلُســاً فانـــزلْ علـى قَلـسا

فيوصي الشاعر القائد صلاح الدين عن الأماكن كلها تستنجد وتستنهضك في طلب نجدها وتحريرها فبعد القدس يذكره بصور، وطرابلس ، وطرطوس ، وأنطاكيا ، وساحل الشام كله ، فنجد ترديد المكان واضح بقوة في شعر العماد فلا تكاد قصيدة تخلو من ذكر المكان وأعطاه الأهمية القصوى لتعلقه في قلبه ووجدانه ، واستطاع شاعرنا أن يصف لنا فتح بيت المقدس المكان الطاهر الشريف بيوم النصر المبين ، يقول [١] :

فلا يستحقُّ القدسَ غيرُكَ فـي الورى فأَنتَ الذي من دونهم فتحَ القُدسا
ومـــنْ قبلِ فتحِ القُدسِ كنتَ مقدَّساً فلا عَدِمَتْ أَخلاقُكَ الطُّهْر والقُدسا
نَزَعْتَ لباسَ الكُفْرِ عن قُدْسِ أَرضها وأَلبَسْتهَا الدِّينَ الذي كشفَ اللَّبسا
وعـــادتْ ببيـــتِ اللّهِ أَحـــكامُ دينه فـــــلا بَطـــركاً أَبقيتَ فيها ولا قَسا

إن صورة المدينة تشكلت بفيض من إحساس الشاعر وخياله، وتداعي الصور الحسية عليها فليست (القدس) هنا مدينة جغرافية محددة بموقع وحدود وحسب بل حالة شعورية وفكرية قابعة في أعماق الشاعر، يعمل على إحيائها وتحديد طاقتها لمواجهة فعل الحرب المناقض لتلك الحياة شكلاً ومضموناً [٢] ، فكان يوم حطين شاهداً على تلك البطولة والنصر العظيم ، فهو ملحمة حربية استطاع البطل الأيوبي الانتصار فيها ، وما زال يواصل انتصاراته الجليلة في تدمير الباقين ، وقتلهم ودفنهم في قبروهم ، ثم يذكر أماكن كثيرة لها شرف التحرير فيقول : [٣]

وقد شاعَ في الآفاقِ عنكَ بشارةٌ بأَن أَذان القدسِ قـــد أَبطَلَ النقسا
وقـــد طـــابَ رَياناً على طـبريةٍ فيا طيبَها مغنىً ويا حسنها مرسَى
وعكا وما عكا فقـد كانَ فتحُها لإجلائهم عـــن مُدْنِ ساحلهم كَنْسا
وصـيدا وبيـروتُ وتبنيـنُ كـلُّها بسيفكَ أَلفى أَنفَهُ الـــرَّغْمَ والتعـسْا
ويافا وأَرســوفٌ وتُبنَـــى وغـزَّةٌ تَخِذْتَ بها بين الطُّلى والظُّبى عُرْسا
وفي عسقلانَ الكفرُ ذلَّ بملككمْ فمنظرُهُ بلْ أَمـــرُهُ اربـــدَّ وارجـــسَا
وصارَ بصورٍ عصبة يرقبونكمْ فـــــلا تُبطئوا عنها وحَسُّوهمُ حسَا

---

[١] – ديوانه : ص ٢٣٢ .

[٢] – المكان في شعر الحرب : ص ٩٣ .

[٣] – ديوانه : ص ٢٣٢ – ٢٣٣ .

يعود الشاعر بهذه القصيدة ليجدد ذكر أماكن تستحق النضال والتضحية بعد ان ذاع بشارة الأذان في القدس دليل تحريرها فيحث على تحرير ((طبرية ، وحسن موسى ، وعكا ومدن ساحلها ، وصيدا ، وبيروت ، ويافا ، وأرسوف ، وتبنى ، وغزة ، وعسقلان ، واربد ، وصور)) . ويحرر باقي الأماكن والقرى والمدن ، معتمداً في توكله على الله سبحانه وتعالى ، فالله ناصره وهو خير الناصرين ، ثم يعود ليستنهض القائد ويتوكل على الله فيقول [1] :

توكلْ على اللّهِ الــذي لكَ أَصبحتْ كـلاءتُهُ دِرعـــاً وعصـمتـهُ تــرْسـا
ودمِّرْ على الباقينَ واجتثَّ أَصلَهُمْ فإنكَ قـــد صَـــيرْتَ دينـــارَهم فَلْـسا
ولا تنسَ شركَ الشرقِ غربك مروياً بماءِ الطُّلى من صادياتِ الظبى الخمسا
وإنَّ بـلادَ الشـــرقِ مظلمةٌ فَـــخُذْ خُـراسـتانَ والنـهرينِ والتُّركَ والفــرْسا
وبعد الفرنجِ الكَرْكَ فاقصدْ بلادَهُم بعــزمكَ واملأ مـــن دمـائهمُ الرَّمْسا
سحبتَ على الأُرْدُنِّ رُدْناً من القنا رُدَينـيـّةً مـثْـداً وخَـطِّـيّـةً مُـلْـسا

يؤكّد الشاعر على أنّ على القائد أن التوجية لبلاد الشرق بعد التوكل على الله ، من خراسان والنهرين والترك والفرس ، ومن ثم يقصد مكان الكرك والتوجه صوب الأردن وقطع دابر الفرنج ومحاربتهم في عقر دارهم وبلادهم ، فمن هذا النص نجد الشاعر ((داعيا أبناء أمته إلى الوقوف بوجه التحديات المقيتة لإبطال وإفشال النوايا السيئة التي تريد بهده الأمة الشر والخذلان ، ولهذا لم يجد بدأ إلا الدعوة إلى التوثب والتوحد من اجل حماية الأرض والعرض ، ومن اجل أن تصل هذه الصرخة إلى كل نفس تواقة للمجد ، ومتطلعة إلى الحياة الحرة الكريمة ، لا بد من استخدام منزع أسلوبي يتصف بالسمة التراكمية لأفعال الأمر التي لم يقتصر استخدامها على ما تؤديه من معنى حقيقي ، بل تجاوزه إلى الاستخدام المجازي لتؤدي معنى التهديد والوعيد والاحتقار والإذلال وإظهار القدرة ، وكذلك التوجيه والإرشاد الذي نلمحه بقوله (ولا تنس) الذي تحول (لا) الناهية إلى صيغة الأمر، ليتمحور مع ما أفاد تراكم الأفعال في النص أن يعم النظر في الأساليب التركيبية لهذه النصوص الشعرية)) [2] ، فتتضح له معرفة أسلوب الخطاب الذي يقود إلى معرفة ((مقاصد صاحبه ، من حيث أنَّه قناة العبور إلى مقومات شخصية لا الفنية فحسب بل الوجودية مطلقاً)) [3] ، ثم يذكره في موقعة حطين المكان والموقع الذي نصره الله على أعداءه .

---

[1] – ديوانه : ص ٢٣٣ – ٢٣٤ .

[2] – شعر الحرب في عصر بني أيوب : ص ٧٤

[3] – الأسلوبية والأسلوب نحو بديل السني في نقد الأدبي : عبد السلام المسدي ، دار العربية للكتاب ، ط٢ ، تونس ، ١٩٨٢ م : ص ٦٤ .

فيقول [1] :

حططتَ على حطِّينُ قدرَ ملوكهمْ ولم تُبقِ من أَجناسِ كفرهمُ جِنْسا
ونعْمَ مجالُ الخيلِ حطِّينُ لـم تكنْ معاركُها للجُرْدِ ضـرْساً ولا دَهْسا

استطاع الشاعر أن يربط الأماكن بعضها ببعض فبعد فتح القدس عزاز ، واستطاع أن يهلك أهل الشرك وينتصر عليهم ، وذلك بفضل قواته ومجهوده وباسه ، وتفاخر الإسلام من السلطان ، كما تفاخر الفرس بكسرى أبرويز[2] ، يقول [3] :

تفاخرَ الإسلامُ من سلطانه تفاخـــرَ الفــرسِ بأَبـراوازها
تَهَن من فتحِ عزازٍ نصــرةً أوقعت العـــداةَ فـي اعتزازِها
واليــومَ ذلتْ حَـلبٌ فـإنها كانت تنالُ العــز من عزازِها
وحــلبٌ تنفــي كمُشُتكينـها كما انتفتْ بغدادُ عن قيمازِها

فقد كان للمكان الدور المهم في إلهام الشاعر في استذكار الماضي بالحاضر وإنَّ النصر واحد ، ذكر مكان حلب الشهباء ، ومن بعدها بغداد دار السلام .

وقد استطاع الشاعر استنطاق الأماكن في رثائه للقائد المجاهد ، ها هو يئن ويتفجع لفقد الملك المجاهد نور الدين زنكي الذي حارب الصليبين بلا هوادة ، وينظم في رثائه عدة مقطوعات وقصيدة واحدة مطلعها [4] :

الدينُ في ظُلَمٍ لغيبةِ نُورهِ والدهرُ في غَمٍ لفقدِ أَميرِهِ
فلينْدُبِ الإسلامُ حامي أَهلهِ والشامُ حافظُ مُلكهِ وثغورِهِ

فهو يرى أن الدين في ظلام بسبب غيبة نوره والدهر مهموم ، لفقد الأمير ، فعلى المسلمين جميعاً أن يندبوه ، وكذلك مكان الشام يندبه ويبكيه استعاره للبكاء على هذا البطل الذي حافظ عليها وحمى ثغورها ، فاستحق القائد البكاء العميق والحزين لفقده ، فكان الحامي والمناضل في سبيل الأرض والعرض ، فالعماد لم يعبر عن أسفه ولوعة قلبه وحرفته فقط ، وإنما عبر عن حزن ألامه جميعاً وأسفها على حامي حماها ، ثم يتساءل عن أماكن حزينة تبكي عليه كالمساجد ، وهنا نرى العماد يستعين بصيغ

---

[1] – ديوانه : ص ٢٣٤ .

[2] – ينظر شعر عماد الدين الاصبهاني : رضا حمودة : ص ٢٠٠ .

[3] – ديوانه : ص ٢٢٥ .

[4] – المصدر نفسه : ص ٢١٢ .

الاستفهام في تكوين تمهيد مؤثر في النفوس ؛ لكي يجعل القارئ مشدوداً معه ويشاركه إحزانه إذ أن المصيبة عمت المسلمين وديارهم ، فالبلاد تصرخ وتندب هذا القائد الفذ وفي ذلك يقول[١] :

مَنْ للمساجـــدِ والمدارسِ بانياً ... للهِ طوعاً عن خلوصِ ضميرِهِ
من ينصرُ الإسلامَ فـي غزواتهِ ... فلقد أُصـيبَ بـركنهِ وظهيرِهِ
مَنْ للبلادِ ومَنْ لنصرِ جيوشها ... من للجهادِ ومن لحفظِ أُمورِهِ

هذه التساؤلات والاستفهامات من الشاعر أوقدت النار في القلوب وألهبت صدور ، إذ إنَّ فقدان الأمير أمر جلل ليس بالهين ، فقد كانت له صولات وجولات في مقارعة ومقاتلة الفرنج المغتصبين ، والاصبهاني يكرّر هذه المعاني أيضاً في رثائه القائد صلاح الدين الذي سار على ما كان عليه نور الدين في مجاهدة الفرنج وتحقيق النصر عليهم وتحرير الأماكن المقدس كالقدس الشريف يبكي عليه ويحزن لفقدانه ، نجد رثائه له بحزن عميق حيث يقول [٢] :

باللهِ أين الناصـرُ الملكُ الـــذي ... للهِ خالصـــةً صَـــفَـتْ نيّـاتُهُ
أَينَ الـــذي عنـــتِ الفرنـجُ لبأسهِ ... ذلاً ومنـــتها أدركـــتْ ثـــارتُهُ

ثم يقول [٣] :

مَـــنْ لليـتامى والأَرامـل راحـــمٌ ... متعطِّفٌ مفضوضةٌ صَدَقاتُهُ
وكعادة البيتِ المقدَّسِ يحزنُ الـ ... ـبيتُ الحرامُ عليه بلْ عرفاتُهُ
مـــنْ للثغور وقد عدَاها حفظُهُ ... مَـنْ للجهادِ ولم تَعُدْ عاداتُهُ

لقد شكل نسق الاستفهام تراكماً بيناً في هذا النص الشعري ، فالأبيات ارتكزت على اسمي الاستفهام ((أين ، من)) اللذين استعملا بشكل متتابع ومتوازن ، من أجل استدعاء المخاطب لمشاركة في كل ما يحسه ويشعر به حيرة وقلق ، وحزن إزاء ما يجري على الساحة العربية من أحداث جسام ، وما يحدوه من أمال كبيرة ، يتوسمها في أبناء جلدته لمواجهة الحدث ، ولعل هذا العمق البلاغي القائم على النسق الاستفهامي الإنكاري ، شحذ بمواشجاته الدلالية عمم المقاتلين واندفاعهم المتواصل وتفانيهم من اجل القيم والمبادئ السامية ، فضلاً عن ان الشاعر لجأ الى هذا التكرار لأدوات الاستفهام الذي

---

[١] – ديوانه : ص ٢١٣ .
[٢] – المصدر نفسه : ص ٨٧ .
[٣] – المصدر نفسه : ص ٨٩ .

استخدمه الشاعر، ليؤكد أو يكرس المعنى المراد ، سواء أكان على مستوى البنية اللسانية ، ام التمثيل الدلالي الذي يتمخض عنها [١] .

إنَّ المكان الحربي كان له الدور البارز في شعر العماد ، فقد أثارت الحرب الدائرة بين المسلمين والإفرنج قريحة الشاعر فوقف عليها ، ووصفها وتحدث عنها من مدحه لقادتها الذين خاضوا المعارك والحرب الضروس ببسالة وشجاعة ، فها هو يمدح ويصف بطولة القائد نور الدين محمود زنكي ، فيعلو صوته وتتسع دائرة وصف الحرب فيغوص في الأعماق ويتحسس الأشخاص والأماكن والأشياء بروح من الغيرة والانفعال ؛ لأنَّ هم الحرب هو تحرير الأماكن والديار المقدس ، فذاع صيتها الأفاق والبلدان وفي ذلك يقول [٢] :

كم بكرِ فتــحٍ ولَّدتْهُ ظُباكَ مـــنْ حَـــرْبٍ لقمــعِ المشركينَ عَوانِ
كم وقعةٍ لكَ فـــي الفرنج حديثُها قـــد ســارَ في الآفاقِ والبلدانِ

ثم يسترسل في وصف المعركة ، فيقول [٣] :

وجعلتَ فـــي أَعناقِــهِمْ أغلالَهُمْ وسَحبتَــهُمْ هُـوْناً على الأذقانِ
إذْ في السَّوابغِ تُحْطَمُ السُّمرُ القنا والبيضُ تُخْضَبُ بالنّجيعِ القاني
وعلى غناءِ المَشْرِفيّةِ فـي الطُّلَى والهامِ رَقْــصُ عــوامِلِ المرَّانِ
وكــأنَّ بيــنَ النَّقْعِ لَمْعُ حديدها نارٌ تألّــقُ مِــن خــلالِ دُخانِ

هذه الألفاظ التي تتراكم فيها معاني الرعب التي يقوي بعضها بعضاً في تنظيم فني مقصود تعكس صورة المكان المعادي، متخذة مساراً عمودياً، من الأرض المهجورة من الحياة ، والمسكونة بالموت ، ثم تظهر المعركة الذي تعلو وجه الأرض تلك، فالسوابغ تحطم سمر القنا ، والبيض تحمر بلون الدم ، كناية على سفك الدماء ، مشحوناً بالنقع لمع الحديد التي تخطف الموت خطفا ، ثم التجوال الذي تمارسه آلة الموت السيف لتقوم بعملها بمنتهى السرعة والاتقان، فتكون حصيلتها تلك الجثث المقطعة ، فوصف الموقف في المعركة نار ودخان عم أرضها وسماءها ، من لم يجن من الأرض سوى بغضها، لن تغشاه السماء بغير غضبها ، إنَّه تصوير فنيٌّ لغوي لأجزاء المكان وسماته، تستمد فيها ريشة الشاعر ألوانها وحركاتها من موقف شعوري نفسي ذاتي، ومن واقع موضوعي مفروض وقد لا يكون ضرورياً ((أن يكون الذاتي تكراراً للموضوعي، بل الغالب أن يكون للذاتي واقعيته الخاصة، وعندئذ، وعندما يحاول

---

[١] – ينظر : البنى الأسلوبية في شعر السياب دراسة في مجموعة أنشودة المطر ، حسن ناظم عبد ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية : ١٩٩٥ : ١٤١

[٢] – ديوانه : ٤١١ .

[٣] – المصدر نفسه : ٤١١ – ٤١٢ .

الشاعر ان يصنع من الذاتي واقعياً، من خلال الصورة المحسوسة، يبدوا هذا الواقع الجديد مغايراً للواقع العياني المرصود)) [١] ، ثم يجعل الحيرة تأخذهم وكيف تاهوا في المكان فيقول [٢] :

يا خيبةَ الإفرنـــجِ حـينَ تَجَمَّعوا ... فـــي حَيْرَةٍ وأتَوْا إلـى حَوْرانِ
جـــاؤوا وظنهُمُ يُعجّــلُ رِبْحَهم ... فأعدتَهُمْ بالخِـــزي والخُسرانِ
وجلوتَ نورَ الدِّينِ ظلمةَ كُفرهم ... لمـّا صَدَعْتَ بواضــحِ البُرهانِ
وهَزَمْتَهمْ بالــرَّأْي قبــلَ لقائهمْ ... والرأيُ قبــلَ شجاعةِ الشجعانِ

حدد مكان قتلهم وهزيمتهم بمنطقة ومكان يسمى الري ، وكيف صار القتل فيهم والفتك فيهم اشد الفتك وكيف يصف فرار العدو من مكان المعركة [٣] .

فاروا مــن الفَوّارِ عندَ فِرارِهم ... بالفَوْرِ وامتدُّوا إلى المـــدّانِ
بَعَلُوا معسكرَ بعلبكَ وأَبصروا ... من جُنْدِ بُصرى بَرْكَ كلِّ جِرانِ

ثم يثني على الأكراد والأتراك ومماليك مصر في قتالهم ونصرتهم لهذا القائد المقدام ووقوفهم معه صفاً واحداً في هذه المعركة فشبههم بالصاحبة في معركة بدر وكيف وقوفهم جنب النبي (ﷺ) ونصرته ، ليعطي للمكان صبغة إسلامية وروح جهادية وقتالية واحدة فيقول [٤] :

وكأَنّما الأَكـــرادُ فـوقَ جيـــادِها ... عِقْبانُ مُلْحَمـــةٍ على عِقْبانِ
ولطالما مَهَرَتْ على نَصْرِ الهُدَى ... أَنصارُكَ الأَبطالُ مــن مهرانِ
لـــم يتركِ الأَتــراكُ فيهمْ غــايةً ... بالفتــكِ والإرهــاقِ والإثخانِ
ولكَ المماليكُ الـــذين بهم عَنَتْ ... أَملاكُ مصـرَ لمالكي بَغْـدانِ
هـــم كالصَّحابةِ يومَ بدرٍ حاولوا ... نصرَ النبيِّ ونُبتُ عن حَسّانِ

ثم يذكر كيف حَلّت الهزيمة بهم نيقول [٥] :

أَخـلـوا بلادَهُـمُ فحــلَّ بأَهلِـها ... منكَ الغـداةَ طوارِقُ الحِدْثانِ
ومــلأَتَ بالنِّيــرانِ أَربُعَ أَهلِها ... فتعجَّلوا الإحـــــراقَ بالنِّيرانِ
عـادوا وحيـنَ رأَوا خرابَ بيوتهمْ ... يئِسُوا من الأَوطارِ والأَوطانِ

---

[١] – التفسير النفسي للأدب : عز الدين إسماعيل، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت د. ت.: ص ٦٦.
[٢] – ديوانه : ص ٤١٢ – ٤١٣
[٣] – ينظر المصدر نفسه : ص ٤١٣ – ٤١٤ .
[٤] – المصدر نفسه : ص ٤١٤ – ٤١٥ .
[٥] – المصدر نفسه : ص ٤١٦ .

إنَّ استخدام اللغة أداة للتعبير عن المكان لدى الشاعر يأخذ بعداً مزدوجاً قي وقت واحد، فالشعر يعني تسخير الزمان والمكان لخدمة التعبير الإنساني، ويمكن ملاحظة نوع الزمن الواقع في اهتمامات الشاعر من صيغ الأفعال الواردة في النص، كما أنَّ الصورة الشعرية هي الأخرى تعني التأليف بين المساحات المكانية الموضوعية المختزنة في ذاكرة المتلقي، وعلاقة الاشتراط الوجودي بين اللغة والمكان تتمثل في نسق من الأفعال والأسماء والظروف المتوفر عليها النص كبناء كلي للصورة المكانية المنتجة عبر اللغة [١] ، كان وصف المعركة دقيقاً والشاعر شاهد عيان على هذه المعركة وكيف أصبحت البلاد على يد هذا القائد تنعم بالأمن والأمان وفي ذلك يقول [٢] :

عُمْرانُ عدلِكَ للبلادِ كأنّما قد عاشَ في أيامكَ العُمرانِ

إن تتابع صور المكان والأشخاص، بل حتى الأصوات ، على شاشة الذاكرة للشاعر جاء بفعل الضغط النفسي المنتج من الضغط الواقعي المفروض عليه الحرب ، الذي يرزح تحت وطئته، ذهن المبدع ووجدانه، وما كان ليعرضها، إلا لتكون متنفساً له. وهروباً من واقعه المكان المعادي [٣] ، والحرب كونها فعلاً ونشاطاً إنسانياً مسلطاً على الإنسان ومكانه ، هي انعكاس أخر للإنسان وتجسيد لرغباته ودوافعه ، التي تختلف باختلاف أمزجته وظروفه وحسب مدى استجابة الفرد للتفاعل مع كل ما قد يتعرض له من تأثيرات مادية أو فعليه أو نفسية فـ ((بالإمكان التأثير على الإنسان نفسياً بمجموع عناصر، ومكونات البيئة، ومجمل تحويراتها الشكلية ولا سيما عن طريق الشكل والتصميم والظلّ، واللون والصوت، والرائحة وغيرها)) [٤] .

---

١ – المكان في شعر الحرب : ص ١٠٣ – ١٠٤ .

٢ – ديوانه : ص ٤١٨ .

٣ – المكان في شعر الحرب : ص ٥٥

٤ – الإنسان والبيئة : ام. هولي، جي. رجيها، جي سلادك. ت وتلخيص : عصام عبد اللطيف، الموسوعة الصغيرة، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م : ص ٢٧.

الخاتمة

يعد المكان في شعر عماد الدين الأصفهاني ركناً مهماً من نظمه ، فلا تكاد تخلو قصائده في الديوان من الإشارة إلى مكان أو موطن ، فكان الوعاء الذي حمل معاناته ومشاعره في السراء والضراء ، وكان الوسيلة الفنية التي وظفها في صياغة نظمه ، والأداة المعبرة عن كثير من المعاني وغابا ما كان المكان عنده يرتبط بالحالة الشعورية والنفسية ، وقد أخذ المكان حيزا واضحاً عن الشاعر بوساطة بساطة الفكرة التي كان يطرحها ، وقد نسج داخل الصورة تشكيلات جمالية متقنة من الإبداع .

– إنَّ العماد كان صاحب نظرة جمالية ذوقية تبينت هذه النظرة من ذكر المكان الأليف المعتمد على معالم الطبيعة في أشعاره وبربطها في أشعاره حول أهمية هذه الأمكنة ، فنجد يصرح بها في موضوعاته الشعرية ، وكانت معالم الطبيعة وأمكنتها تعزز المفهوم والصورة التي يرسمها ، فذكر السماء وعناصرها المتمثلة بالشمس والقمر والنجوم ، وكذلك والأرض وعناصرها وما احتوتهما من مفردات مكانية بامتداد واسع الذي اخذ صداه في نفس المتلقي ، فذكر الجبال والصحراء والمياه ، فأضفى لمسة إبداعية في ذكر دلالات هذه الأماكن وسيرها نحو المفهوم الجميل .

– ومن المظاهر المكانية التي قصدها الشاعر في شعره أنَّه ذكر الأماكن التي كانت ذات تأثير واضح في حياته ولها مكانة خاصة وعميقة في قلب الشاعر ، وهذه الأماكن كانت بلدانه ومدنه التي عاش فيها وأنتقل إليها فكل بلد ومدينة سكنها واستوطنه فيها كان لها حبٌ خاصة لديه وكيف يأخذه الشوق والحنين إليها حين يفارقها أو يبتعد عنها ، فذكر المنازل والديار والبيوت ، وأضفى إليها المشاعر الإنسانية بالألفة والانتماء .

– ولم ينسَ الشاعر المكان الحربي ؛ الذي تطرق إليه كثيرا فدافع عنه دفاعاً مستميتاً دفاع الأبطال من اجل تحريره وتخليصه من أيدي الطغاة الغزاة الكفرة المعتدين ، فما يجد مناسبة إلا وستنهض وشد الهمم في الأخذ بالأيادي وشد العزم لتحرير البلاد والعباد ، فكان الشاعر إذا مدح الخليفة أو القائد أو الأمير أشار إلى تحرير الأماكن الطاهرة ولا سيما بيت المقدس لما له رمزية وقدسية في قلوب المسلمين جميعاً ، وإذا توفي قائد أو أمير رثاه وبندبه وكيف استنطق المكان بالبكاء عليه ، ثم يوصي من يأتي بعده بأخذ زمام الأمور ولا ينسى المهمة فالمكان والبلاد بحاجه ماسه إليه ، فهكذا كان المكان أداة معبرة في ظل ظروف قاسية عاشها الشاعر وهو يدافع ويصد أعلى الهجمات الإفرنجية الغازية ، فعن طريق المكان عبر عن أجل المعاني وأقدسها .

– لقد كان للمكان في شعره قيمة جمالية اتضحت من رسم الصور البيانية فقد كان المحور الذي دارت حوله الصور ، لقد برع الشاعر في تجسيد المكان بكل أنواعه ودلالاته فالمتصفح لديوانه يرى كثافة مكانية في كل قصيدة وقد يرجع ذلك إلى الارتباط النفسي بينه وبين هذه الأمكنة التي ذكرها .

المصادر والمراجع :

١- أدب الاستنجاد في الأندلس من القرن الخامس الهجري إلى القرن السابع الهجري : بن يوسف مصطفى ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٨٥ م .

٢- الأدب في العصر الأيوبي : د. محمد زعلول سلام ، مصر ، ١٩٧٦ م .

٣- إرشاد الأريب لمعرفة الأديب : أبو عبد الله، بن عبد الله ياقوت الحموي ، القاهرة ، ١٩٣٦ م .

٤- الأزمنة والأمكنة : أبو علي احمد بن محمد بن الحسين المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) حيدر اباد الدكن ، ١٣٣٦ هـ

٥- الأسلوبية والأسلوب نحو بديل السني في نقد الأدبي : عبد السلام المسدي ، دار العربية للكتاب ، ط٢ ، تونس ، ١٩٨٢ م .

٦- الإنسان والبيئة : ام. هولي، جي. رجيها، جي سلادك. ت وتلخيص : عصام عبد اللطيف، الموسوعة الصغيرة، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩ م .

٧- البناء الفني في الرواية العربية في العراق : شجاع مسلم العاني ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٧ م .

٨- البنى الأسلوبية في شعر السياب دراسة في مجموعة أنشودة المطر ، حسن ناظم عبد ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية : ١٩٩٥ م .

٩- التفسير النفسي للأدب : عز الدين إسماعيل ، دار العودة ودار الثقافة، بيروت د. ت .

١٠- تلخيص مجمع الآداب ، ابن القوطي : تحقيق د. مصطفى جواد ، مط الهاشمية ، دمشق .

١١- جماليات المكان : جاستون باشلار ، ترجمة غالب هلسا ، بغداد ، ١٩٨٠ م .

١٢- خريدة القصر ، قسم العجم ، عماد الدين الاصبهاني ، تحقيق محمد بهجت الاثري ، و د. جميل سعيد ، مط المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٥ م .

١٣- الخطر الصليبي أبعاده ومقاومته من خلال شعر معاصريه ، حامد الكيلاني : مؤتة للبحوث والدراسات ، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا ، جامعة مؤتة / الأردن ، مج ١٠ ، ع٢ ، ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م .

١٤- دلالات المكان في تعميق الجو النفسي للشخصية في الفلم السينمائي : فادية فاروق ، رسالة ماجستير ، كلية الفنون الجميلة – جامعة بغداد ، ٢٠٠١ م .

١٥- دلالة المكان في "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف : محمد شوابكة ، مجلة اليرموك، مج/٩، عدد ٢، سنة ١٩٩١ م .

١٦- ديوان العماد الاصبهاني : أبو عبد الله محمد صفي الدين المشهور بالعماد الاصبهاني (ت ٥٩٧ هـ) ، جمعه وحققه وقدم له د . ناظم رشيد ، الموصل ، ١٩٨٣ م

١٧- شعر الحرب في عصر بني أيوب ((٥٦٧ هـ – ٦٤٨ هـ)) دراسة أسلوبية : إبراهيم محمد مصلح ، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة الانبار ، ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م .

١٨- شعر الحرب في عصر الرسالة : د. نوري حمود القيسي ، منشورات دار الجاحظ ، الموسوعة الصغيرة ، بغداد ، ١٩٨٢ م .

١٩- شعر الطبيعة في الأدب العربي : د. سيد نوفل ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٥ م .

٢٠- شعر العماد الدين الاصبهاني ((دراسة فنية موضوعية)) : رضا حمودة حمودة علي ، دار العلم والإيمان ، ط١ ، دسوق ، مصر ، ٢٠١٨ م .
٢١- الرواية والمكان : ياسين النصير ، منشورات وزارة الثقافة والأعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ م : ٢٧ .
٢٢- الزمان والمكان في شعر العصر العباسي الأول (١٣٢ هـ . ٢٣٢ هـ) ، غني صكبان سلمان ، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .
٢٣- الزمان والمكان في قصة العهد القديم ، احمد عبد اللطيف حماد ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، ١-٣ ، ١٩٨٥ م .
٢٤- الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام : عبد الإله الصائغ ، بغداد ، ١٩٨٦ م .
٢٥- الطبقات الكبرى ، سابن السبكي ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود الطناجي ، مط عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .
٢٦- الطبيعتان الحية والصامتة في الشهر الجاهلي : د. بهيج مجيد القنطار ، منشورات دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
٢٧- الطبيعة في الشعر الأموي : عبد الأمير كاظم عيسى ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – بغداد ، ١٩٨٣ م .
٢٨- الطبيعة في الشعر الجاهلي : د. نوري القيسي ، مكتبة النهضة العربية ، ط٢ ، ١٩٨٤ م .
٢٩- الكامل في التاريخ ، عز الدين بن الأثير ، مط دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ م .
٣٠- لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار النشر: دار صادر ، ط١ ، بيروت .
٣١- ما قبل الفلسفة الإنسان في مغاراته الفكرية الأولى : هنري فرانكفورت "وآخرين". ترجمة : جبرا إبراهيم جبرا. مراجعة : محمود الأمين، دار مكتبة الحياة ، ط١،، بغداد، ١٩٦٠ م .
٣٢- المجمل في تاريخ الأدب العربي : طه حسين ، احمد الاسكندري ، احمد أمين ، علي الجارم ، عبد العزيز البشري ، احمد ضيف ، القاهرة ، ١٩٣٠ م .
٣٣- مشكلة المكان في فلسفة ابن رشد : عبد العزيز لعمول ، مجلة فكر ونقد ، ع١٣ ، عن الانترنيت ، موقع : فكر ونقد الجابري : fikrwanakd-aljabriabed.net .
٣٤- مضمون الأسطورة في الفكر العربي : د. خليل احمد خليل ،ط٢ ، بيروت ، ١٩٨٠ م .
٣٥- معجم البلدان : أبو عبد الله، بن عبد الله ياقوت الحموي ، دار النشر ، دار الفكر – بيروت ، د . ت .
٣٦- معجم مقاييس اللغة : أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، ط٢، بيروت – لبنان ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م .
٣٧- المكان عند شعراء بني أيوب ((دراسة فنية)) : نضال عبد الجبار حسوني ، رسالة ماجستير ، كلية التربية للبنات – جامعة بغداد ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .
٣٨- المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي ((٤٨٤ هـ – ٨٩٧ هـ)) ، تأليف الدكتور : محمد عويد محمد ساير الطربولي ، الناشر مكتبة الثقافة الدينية ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م .
٣٩- المكان في شعر الحرب ، محمد صادق جمعة إبراهيم ، رسالة ماجستير ، كلية التربية . جامعة الموصل ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م .

٤٠- المكان في الشعر العربي قبل الإسلام : حيدر لازم مطلك ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – جامعة بغداد ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
٤١- المكان في فلسفة ابن سينا : حسن مجيد الربيعي ، مراجعة وتقديم : د. عبد الأمير الاعسم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٨٧ م .
٤٢- المكان والرؤية الإبداعية : د. نادية غازي جبر ، مجلة أفاق عربية ، عدد آذار – نيسان ، ١٩٩٨ م .
٤٣- من دلالة المكان في شعر التسعينات في سورية : حباب بدوي ، مجلة الكاتب العربير ، عدد ٤٩ – ٥٠، كانون الأول ، سنة ٢٠٠٠ .
٤٤- النقد الأدبي : احمد أمين ، دار الكتاب العربي ، ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٦٧ م .
٤٥- وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، تحقيق احسان عباس ، مط دار دار صادر ، بيروت ، ١٩٧١ م .